
رواية
نيرمانا

* الكتاب: نيرمانا (رواية)
* الكاتب:: مُحَمَّد البنا
* تصميم الغلاف: د. شيماء أبو طالب
* إخراج داخلي: سليل الفراعنـة
* رقم الإيداع: 29492 /2021
* الترقيم الدولي: 978-977-94-0586-5

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع










(رواية)

نيرمانا

محمد البنا





تمهيد

في زمنٍ بعيد أسس ملكٌ شاب يدعىٰ تاران مملكةً حديثة في المساحة الجغرافية الواقعة بين أسوان (جنوب مصر) والشلال الأول (شمال بحيرة ناصر الآن) وعاونه في تأسيسها شابٌ آخر يدعىٰ منت، فكان ساعده الأيمن وكان خير معين، شاب ذكي ماكر أخلص له محبة وإيمانًا بتفردهما، وتفرد شعبهما عما يجاورهم من أقوام، فعن شمالهم أمة قوية (الفراعنة) لهم عاداتهم وتقاليدهم ونظم معيشتهم، وعن جنوبهم قبائل متفرقة تمتهن اللصوصية وقطع الطريق والإغارة علىٰ القرىٰ الآمنة، لذا عملا معًا لتأسيس مملكة مختلفة، مملكة اشتقت نظامها الابتدائي اقتباسًا بتصرف مما عرفوه عن جيرانهم الفراعنة كزواج الأخت من أخيها، وأضافوا من تقاليدهم حرية العلاقة الجنسية، وحق الأنثىٰ في مواقعة من تشتهي من الذكور، وخالفوهم في عباداتهم فاتخذوا إلهًا (سيت) غير إلههم (آمون) اختار تاران الذئب الأبيض ذا العيون الزرقاء رمزًا للإله سيت، وأرسىٰ منت طقوس عبادته وكيفية ممارستها، واختارا اسم (مملكة الذئاب) عنوانًا لها.

في هذه المملكة الناشئة وفي عصر ملكها الثاني تاران الثاني وزوجته وأخته الملكة سيرانة متوازيًا مع حاضرنا الآني تدور أحداث هذه الرواية الخيالية.

محمد البنا ١٩ يونيو ٢٠٢١



مقدمة

تعتبر رواية نيرمانا للأستاذ الكبير الناقد محمد البنا تجديدًا في عالم الرواية الرومانسية الاجتماعية؛ وذلك لارتباطها بمقومات الفانتازيا التاريخية والميثيوبيا (أدب صناعة الأسطورة) ورغم أن تصنيفها يندرج تحت روايات التخيل التأملي؛ إلا أنها شكلت ببساطة سردها ومباشرة لغتها فضاءً تخيليًا مزدوج الرؤيا بتعاقب المشاهد الدرامية والبناء النفسي لشخصيات نمطية تمتاز بتفرد منظورها النفسي والإنساني في صراعها بين العقل والعاطفة، وتقبل مفاهيم ما وراء الطبيعة والظواهر الخارقة اللامفهومة والتي تتبع قوانين السحر والغموض والغرابة.

امتلكت الرواية صفات الحداثة والتجديد في طرحها اللامتكلف والانسيابي، رغم أن التجديد الحقيقي في عالم الفانتازيا الحديثة قد أصبح عملًا شاقًا في راهننا العربي الحديث المتواتر الإيقاع والمتمايز بتغيره وتبدله السريع وتشابكه مع تدفق النتاج الأدبي العالمي والعربي، وظهور أنماط متفردة تقاطعت في بعض صفاتها بين الديستوبيا والخيال العلمي والفانتازيا الرومانسية والميثوبيا، فإن رواية (نيرمانا) تعتبر تجليًا مبتكرًا لأدب الخيال التأملي الذي يستقي مفاهيمه من جوهر الوعي في علم النفس واللاوعي في علم الأنثروبولجيا والتاريخ، من خلال خلق حضارة كاملة مبتكرة تخضع

للسطوة النفسية للشخوص النمطية على عكس انضوائها التقليدي للحركات الاجتماعية وفلسفة العلوم والبحث والتقدم العلمي.

إذ نرى الرواية تنساب في تعاقب لمشاهد بين الماضي والحاضر مستحضرة عالمًا تفصيليًا ذا ملامح تاريخية وجغرافية وحضارية مختلفًا عن العالم الواقعي، في تقنية جديدة لا تخلو من الإثارة والتشويق واحتدام الصراع، حيث الحب فكرة بوهيمية عبثية مستحيلة لا تتحقق رغم موائمة الظروف واتساقها.

لا يمكن اعتبار هذا العمل الإبداعي جنسًا أدبيًا منفصلًا بحد ذاته، بل مزجًا ناجحًا للأسطورة المدنية، نجت من الماضي وابتدعت إطارًا نموذجيًا غير مألوفا، ابتعد عن تقديس الرموز الإلهية والمفاهيم الحضارية الفلسفية المتوارثة، وارتكز على منظومة وجود الإنسان الروحي وخلوده من خلال الحب كشعور إنساني يتحدى الزمن والموت والفناء.

فالنيرمانا في النهاية جوهر كوني مدهش يتوهج بين سمات الحيرة والغموض والاستمرارية على المستوى الروحي والفيزيائي للإنسان القديم وبين مرواغة العقل الواعي للإنسان المعاصر الذي يعيش واقعًا حياتيًا يوميًا افتراضيًا يتردد أمام مفارقات ملتبسة مدهشة أساسها خلود الروح البشرية وتحديها للمنطق الوجودي الإنساني.

رواية ممتعة لا تخلو من الاحتدام والتشويق، تجبر قارئها على العودة لذاته؛ ليبحث عن الحقيقة مجددًا.

كنانة عيسى ٢٠٢١



البداية

الليلة ليلة السادس والعشرين من شهر تموز لعام ألفين وعشرين الميلادي، موعده المعتاد مع ندوته الأسبوعية في ناديه الثقافي، قصر ثقافة مصر الجديدة حيث يلتقي بأصدقائه الشعراء والشاعرات، والقاصين، والقاصات أعضاء النادي، إلا أنّ أمسية اليوم سيحل عليهم ضيفة جديدة، بشّر بها وأعلن عنها رئيس نادي الأدب منذ ثلاثة أسابيع مضت، واصفًا إياها بالمعجزة الشعرية التي طال انتظارها لعقود، بعد أن جفت منابع الشعر، وأضحىٰ جل من علىٰ الساحة الأدبية العربية عامة والمصرية خاصة مقلدين لا مبدعين، فبعد أن رحلت نازك الملائكة، ولحقت بها فدوىٰ طوقان، خلت الساحة الأدبية من الشاعرات المبدعات المجددات، وصرن شاعرات العصر نماذج مكررة كأنهن يتناسخن أنفسهن كوحيد الخلية، وكانت حفاوته هذه كفيلة وكافية ليلغي سعيد كل ارتباطاته العائلية والمهنية إن وجدت، ويتأهب نفسيًا ومعنويًا لحضور تلك الأمسية، لينصت، ويحلل، ويطابق، ويقارن، فغادر منزله مبكرًا عن المعتاد تحسبًا لأي اختناقات مرورية قد تؤخره عن موعده، فيصل متأخرًا وربما يفوته من الفعاليات ما قد يندم عليه.

وصل قبل الموعد المعلن عنه مسبقًا لبدء الندوة بنصف ساعة، تبادل التحية مع من سبقه من زملائه حضورًا، ومن ثم اتخذ مكانًا في

منتصف الصفوف، فلا هو بالقريب من المنصة حيث ستجلس الضيفة، ولا هو بالبعيد عنها.

مضت الدقائق متسارعة، فلم يكد ينهي فنجان قهوته ويطفئ سيجارته، حين أعلن مدير الندوة عن ترحيبه بالضيفة الجالسة إلىٰ جواره خلف المنصة، اعترته دهشة وتساءل محدثًا نفسه: (متىٰ وصلت؟ وكيف لم يلحظ ذلك وهو لم يغادر مقعده منذ أن اقتعده)

-الشاعرة سيرين حمدي.. ضيفتنا الليلة، وكما وعدتكم منذ عدة أسابيع واصفًا إياها بالمعجزة الشعرية، أدعوكم جميعًا للاستماع لها، ثم نبدأ المداخلات.

نظر إليها سعيد متفحصًا: امرأة في بداية العقد الخامس، وجه أبيض مشوب بحمرة خفيفة، وعينان متقدتان وهجا كأنها الشمس، تقاطيع حادة تنم عن شخصية قوية صعبة المراس، ورغم ذلك لم يشعر بغربته عنه، حتىٰ عندما التقت عيونهما لثانية زمنية وربما أقل من ثانية، شعر بأنّ شيئًا ما قُذف داخله، لم يتبينه أو يدرك كنهه، اعتدل في جلسته وبدا مهيأً للإنصات لها، وبدأت أوائل كلماتها تسلل بانسيابية إلىٰ سراديب وجدانه.

منذ زمنٍ التقينا

لا تسلني متىٰ وأين

لا تسلني كيف كنا...



أغمض عينيه، وانطلقت روحه تحلق في أفقٍ بعيد، فهذه النظرة إن ساوره شكٌ أن رآها آنفا، فقد فنده يقينه أنّ هذا الصوت سمعه من قبل.



الفصل الأول

أتىٰ الليل حثيثًا، يرفل في عباءته السوداء، بينما القمر يجاهد لينشر بعض أضوائه من خلال فرجات ضيقة بين سحبٍ داكنة، تحجب زرقة السماء.

خارج خيمته الملكية المنصوبة علىٰ الضفة الغربية من النهر العظيم، لا يفصلها عن شاطئه الرملي سوىٰ أمتار قليلة، حيث أُقيمت علىٰ تلة مرتفعة، تشرف من علٍ علىٰ خيمات متناثرة علىٰ الضفة الشرقية في تناسق مدهش، تأوي العديد من الجنود المحاربين الأشداء، يقف الملك تاران الثاني متطلعًا إلىٰ قبة السماء، يبحث عن موقع دبها القطبي دون جدوىٰ، فقد شكلت السحب حاجزًا منيعًا بينه وبين وضاءة النجم، عاد بذاكرته إلىٰ صباه حيث اصطحبه والده تاران الأول في إحدىٰ معاركه ضد أعداءهم الأزليين (السدرانيين) تذكر كيف شاهد أباه وهو يغمد نصل سيفه في قلب قائدهم، فيوقعه من فوق حصانه الأشهب، ثم يطأه بعجلات عربته الحربية، تذكر أيضًا جنود أعدائه وهم يفرون أمام جند أبيه البواسل بعد مقتل قائدهم، تمنىٰ لو يكرر نصر أبيه، بل وأن يقضي عليهم نهائيًا، بعد أن قويت شوكتهم، وغرّهم تسامحه معهم، فأكثروا من الفساد في الأرض، وما فتئوا يغيرون علىٰ القرىٰ المطمئنة والكائنة علىٰ التخوم الجنوبية لمملكته، فأشاعوا فيها الرعب والدمار كدأبهم منذ بدأوا في توحدهم للإغارة علىٰ ساكني المناطق المجاورة لقراهم، والاستيلاء علىٰ ماشيتهم

وإبلهم وأغنامهم، بعد أن كانوا مجرد قطاع طرق متفرقين، يتناحرون كثيرًا فيما بينهم، لتنافسهم علىٰ الإغارة علىٰ القوافل التجارية بين الشمال والجنوب.

هنيهة وخرجت إليه زوجته، لم يشعر بها وهي تتسحب خلفه، ثم توقفت لبرهة تتأمله:

-ما الذي يفكر به زوجي الحبيب؟

التفت إليها بوجهه، تبين ملامحها بصعوبة، إلا أنّ صوتها الغانج لم يكن ليخطئه:

-لا شيء يا عزيزتي.

صمت قليلًا، وتطلع إلىٰ السماء مرةً أخرىٰ، ثم استطرد:

- أبحث عن الدب القطبي.

ضحكت في دلال وهي تحتضنه من ظهره، وقالت:

- مالك ومال الدب القطبي يا ملكي العزيز؟ أنسيت؟! هذه مهمة كهنة المعبد.. هكذا وجدنا أبانا يفعل، لا يمضي لأمرٍ إلا بعد مشورة كبير الكهنة ومباركته.

صمتت هنيهة، ثم أردفت متسائلة:

- ما الذي يدور بخلدك يا عزيزي؟

- أفكر جديًا في مطاردة السدرانيين حتىٰ أقاصي الجنوب.

قاطعته مستنكرة:

- لا.. لا تفعل، أرسل أحد قوادك، واستدعِ منت كبير كهنة المعبد، وشاوره في الأمر قبل أن تقدم عليه.

- حسنًا، سأفعل يا أختي الحبيبة وأم بناتي.

التفت إلىٰ أحد جنود حراسته المنتصبين كأوتاد سامقة لامعي العيون والحراب:

- أيها الجندي، تعال إلي.

اقترب منه الجندي منكسًا رأسه، وغامدًا سن حربته في التربة الجافة تحت قدميه:

- نعم يا مولاي، مرْ تُطاع.

- اذهبْ من فورك، وعد إليّ وكبير الكهنة معك.

- سمعًا وطاعةً يا مولاي.

وانصرف مهرولًا ليبتلعه الظلام الدامس المحيط بالأرجاء.

في الخيمة جلس الملك علىٰ كرسي مذهب، والصولجان في يده اليمنىٰ، بينما استلقت زوجته سيرانة علىٰ فراش وثير، تتكئ بذراعها الأيسر علىٰ وسادة زرقاء محشوة بريش النعام، ينتظرون قدوم كبير الكهنة، الذي ما لبث أن أرسل صوته - عابرًا الغلالة الرقيقة التي تحجب بالكاد ما بداخل الخيمة عمّا خارجها- يستأذن في المثول بين يدي الملك، فأذن له:

- عمت مساءً يا مولاي، عمتِ مساءً مليكتي الجميلة وابنة الإله سيت.

- أهلًا بكاهن المملكة.

- أهلًا بالكاهن الكبير علمًا ومقامًا.

- خيرًا يا مولاي، لقد أرسلت في طلبي، لعلّ في الأمر خيرا.

- نعم.. نعم يا منت، أنت كاهني بل وكبير كهنتي، وتعلم جيدًا أنني لن أمضي لأمرٍ ما قبل الاستئناس لرأيك ومشورتك.

- نعم الملك أنت يا مولاي، سلْ تُجاب.

- أفكر يا منت جديًا في ملاحقة السدرانيين خلف الشلال الأول، وربما أيضًا أدفع بهم مضطرين تحت ثقل ضرباتي إلىٰ ما بعد الشلال الثالث.

- أتأذن لي يا مولاي؟

- قل ما شئت يا منت، وإلا فلم استدعيتك إن لم تصدقني فيما قالته لك الآلهة؟

- دعك من هذا الأمر يا مولاي، فهو ليس لك.

- لمن إذًا إن لم يكن لي؟!

اختلس نظرة سريعة إلىٰ الملكة، التي اعتدلت في جلستها، تنصت باهتمام وفضول لحديث الكاهن، ثم استطرد موجهًا حديثه إلىٰ الملك:

- ذانك الأمر أوكلته الآلهة إلىٰ أحد قواد جيشك يا مولاي.

- أحد قواد جيشي؟! من منهم يا منت؟ أهو سنقر قائد الميمنة، أم بتراح قائد الميسرة، أم حتور قائد الفرسان والعربات الحربية؟ أيهم يا منت.. أيهم؟

- ليس أحدهم يا مولاي.
- كيف يا منت ليس أحدهم؟! وقد قلت بنفسك آنفًا أنه أحد قواد جيشي، وهؤلاء الثلاثة ولا غيرهم هم قواد جيشي!
- جيشك يا مولاي، أعني به الجيش الذي أسسته بنفسك لمطاردة السدرانيين وتأديبهم، ولا تعني بالضرورة الجيش الذي تترأسه الآن في هذه الآونة.
- فهمت.. فهمت، إذًا قل لي ما اسمه وأين أجده حتىٰ أوليه أحد قيادات أفرع جيشي.
- مكتوب اسمه علىٰ الماء يا مولاي، وعلىٰ صفحة السماء الزرقاء، وأيضًا مكتوب أسمه علىٰ جبينك سيدي الملك.
- إذًا اقرأه وقل لي من هو؟
- سأقرأه فقط في ليلةٍ قمرية لحظة أن تقع عينك في عينيه، ستضيئ أحرف اسمه فوق جبينك، وفي الماء، وفي السماء، حين تراه فقط أستطيع رؤيته مثلك وقراءة اسمه، أما الآن فالعودة ظافرًا منتصرًا، ويكفي ما نال السدرانيين من مهانة وذل في معركتنا معهم اليوم، ودحرهم إلىٰ أعلىٰ الشلال الأول.

صمت برهة، وأغمض عينيه، وتلا كلامًا مبهمًا لم يفهمه الملك ولا الملكة، ثم فتح عينيه بصعوبة وهمهم في أناة:

- هذا ما قالته الآلهة، والأمر لك يا مولاي، وما علينا إلا السمع والطاعة.
- حسنًا يا منت.. حسنًا، اذهب الآن واسترح.



٢

انصرف الكاهن منت، ولم ينس قبل انصرافه أن يرسل نظرة خفية إلىٰ الملكة -التي اعتدلت في جلستها لحظة دخوله إلىٰ الخيمة، ولكنها لم تبد اهتمامًا به، إلىٰ أن قال للملك عن النبوءة، فأصخت السمع- تلقتها عيونها ووعاها عقلها، ولسان حالها يقول: متىٰ؟

أوشك الفجر علىٰ البزوغ، ليشق بأنيابه ستارة الظلام، حين استدعىٰ تاران قادة أفرع جيشه، وهنأهم بنصرهم المؤزر وبسالة جنودهم في دحر قوات السدرانيين، ودفعهم مضطرين إلىٰ ما وراء الشلال الأول، وأمرهم بالاستعداد للعودة إلىٰ الديار.

استأذن أحدهم مولاه في السماح له بالكلام، فأذن له:

- مولاي، نستطيع أن نقضي علىٰ فلولهم عن بكرة أبيهم الآن، وجنودك يا مولاي تواقون لذلك، فلم العودة الآن ونحن قاب قوسين أو أدنىٰ من تحقيق ذلك، والخلاص منهم للأبد؟

ابتسم تاران وربت علىٰ كتف القائد قائلاً في حنو بالغ، وحنان أب:

- وهل لنا أن نعصىٰ أرادة الإله سيت يا تور محب؟!

احنىٰ الرجل رأسه خجلًا، في اعتذار ظاهر عن تجرؤه بالسؤال الذي طرحه منذ هنيهة، ثم لم يلبث أن ركع علىٰ ركبتيه، وأمسك بكف الملك وقبله، ثم وضعه فوق رأسه، بينما تجري الحروف علىٰ شفتيه:

- سمعًا وطاعة يا مولاي.. سمعًا وطاعة.

وما لبث أن تبعه الآخران واحدًا تلو الآخر، وفعلا مثل فعله من ركوع وتقبيل، وانصرف ثلاثتهم متجاورين في صفٍ أفقي واحد، دون أن يولوا ظهورهم في حضرة تاران إلىٰ أن تجاوزوا باب الخيمة، ومضوا في اتجاه شاطئ النهر، حيث كانت ينتظرهم قارب خشبي فخم أقلهم إلىٰ الضفة الأخرىٰ، حيث خيامهم تنتصب وخيام الجنود.

سبقت أخبار عودة الجيش مظفرًا إلىٰ أحياء المدينة وصولهم إلىٰ مشارفها، حيث دخلوها ليلًا يتقدمهم تاران في عربته الحربية المطعمة أخشابها برقائق ذهبية، تلته عربة حربية أخرىٰ مطعمة بالذهب أيضًا تقودها الملكة الفتية، ومن خلفهما العربات الحربية للقواد الثلاثة، وعربة عريضة ذات عجلات حديدية أقل حجمًا من مثيلاتها، فبدت مميزة بمقعدها المطرز بخيوط ذهبية وفضية، وباتساعها عن باقي العربات الحربية، يجلس منت علىٰ مقعدها، وبين فينة وأخرىٰ يضع حبيبات ذات ألون مختلفة، يغلب عليها اللونين الأزرق والأحمر في بوتقة مشتعلة في مقدمة العربة، فتتصاعد منها أبخرة ذات روائح عطرة، ولم يكن لأحد أن يجهل أنّ هذه العربة هي بالطبع عربة كبير الكهنة منت، وأنّ القاعد فوق كرسيها هو منت نفسه.

سار الموكب منذ وطئت عجلات عرباته أرض المدينة، متجهًا صوب بوابة معبد الإله سيت، والمشاعل علىٰ جانبي الطريق الترابي المعبَّد، يحملها حملة المشاعل، بينما أهل المدينة يصطفون بطول الطريق مهللين فرحين بانتصار مليكهم، وما إن تلوح علىٰ مشارف الطريق عربة الملك حتىٰ يسارع الجميع إلىٰ السجود، فقد كان من غير

المسموح لهم النظر إلىٰ الملك وجهًا لوجه، وإلا كان مآل من يتجاسر ويرفع رأسه أن تقطع بحد السيف.

اقترب الموكب من الطريق المعبَّد المخصص للمعبد، حيث تنتصب علىٰ جانبيه تماثيل الذئاب متقنة الصنع، والمنحوتة من الحجر الجيري الأبيض، بينما عيونها الزجاجية الزرقاء تلمع بشدة حين تقع أشعة أضواء المشاعل عليها، فتبعث في النفوس رهبة وإجلال.

خفتت الهتافات وتلاشت تقريبًا مع اقتراب الموكب الملكي من بوابة المعبد، إلا أنّ صوتًا لصبي ارتفع فجأة، ليشق جدار الصمت المخيم علىٰ المكان

- رأيت مولاي.. رأيت الملك تاران، لا يهمني الآن أن تقتلوني، يكفيني شرفًا أني رأيته.

همّ أقرب الجنود له بقطع رأسه بحد سيفه، إلا أنّ تاران صاح فيه ألا يفعل، فتجمد مكانه والسيف لا يزال ملامسًا عنق الصبي، ثم توقفت عربة الملك مكانها، وتبعتها كل العربات الأخرىٰ، وكذلك الجنود المترجلين، ثم أشار الملك للجندي أن أترك الصبي، ودعاه للدنو منه، فاقترب الفتي منفردًا صوب العربة الملكية، إلىٰ أن أصبح لا يفصله عن الملك وعربته سوىٰ مسافة مترين لا أكثر، حينها توقف من تلقاء نفسه، وقع ساجدًا واضعًا جبهته علىٰ الأرض.

- انهض يا فتىٰ.

نهض علىٰ قدميه مطأطئًا رأسه.

- ألا تعلم أنّ فعلتك هذه تستوجب قتلك؟
- أعلم يا مولاي.
- تعلم؟! لم فعلتها إذًا؟
- حدثتني أمي سنوات وسنوات عن بطولاتك، وشجاعتك، حتىٰ بت أشتهي رؤيتك، وصار ذلك الأمر شغلي الشاغل، أن أمتع عيني برؤية بهائك، ولأمت بعدها لا يهم.
- ما اسمك يا فتىٰ؟
- عبدك وخادمك مربتاح وابن أمتك سيمار.

كان الكاهن قد ترجل من عربته، ودنا منهما بحيث أصبح مجاورًا للعربة الملكية المخصصة للملكة، والتي كانت تتابع المشهد باهتمام شديد، وكان الكاهن كل همّه أن يلمح جبين مولاه، إلىٰ أن سنحت له الفرصة حين التفت إليه الملك وفي عينيه نظرة تساؤل، فهم فحواها فأومأ براسه، ثم أدار رأسه جانبًا صوب الملكة، والتي كانت بدورها تنتظر منه نظرةً تثلج صدرها، نظر إليها وابتسم، ثم مضىٰ بخطىٰ بطيئة، واعتلىٰ عربته وجلس علىٰ مقعده.

أشار الملك للشاب أن يركب خلفه، فاعتلىٰ العربة من فوره، تغمره سعادة ما بعدها سعادة، حتىٰ بدا وجهه وضاءً كقمرٍ منير.

٣

ما إن تجاوزت العربة الملكية بوابة قصرهما المنيف، والمقام أعلىٰ تلةٍ في المدينة، وفي أقصىٰ طرفها الشرقي، حتىٰ ترجل منها تاران، تلته

سيرانة التي احتضنت من فورها بناتها الثلاث اللاتي كن في استقبالهما، وصيحات الفرح والسرور تسبق ملامح السعادة التي كست وجوههن بعودتهما سالمين منتصرين، بينما أشار تاران لقائد خدمه باصطحاب مربتاح، الذي كان قد ترجل من العربة، ووقف منزويًا حائرًا لا يدري ماذا يفعل، وما هو مقدمٌ عليه، وما ينتظره في الأيام القادمة من مفاجآت وأحداث، لم تكن تخطر له علىٰ بال، بل ولم يكن ليحلم يومًا أن تتجاوز قدماه عتبة البوابة الملكية، فإذ به يطأها، وفي صحبة من؟ تاران وسيرانة! مولاه ومولاته.

بناية صغيرة في الطرف الغربي من المساحة الشاسعة للقصر الملكي، يفصل بينها وبين الباب الداخلي المذهب للقصر مائتي ذراع علىٰ أقل تقدير، مزروعة بالورود والريحان، يخترقها ممر ذو أرضية رخامية يصل بين باب البناية والسور الشجري لأزهار البرتقال، والمحيط في دائرة شديدة التناسق بجدران القصر الرئيس، مائتي ذراع قطعها مربتاح سائرًا علىٰ قدميه يصحبه بار محب قائد الخدم، إلىٰ أن وصلا بابها، وأمر حارسيها بفتحه، ففتحاه، ودعا مربتاح في أدب جم للدخول، ثم تجول معه داخل البناية الحجرية، ليعرّفه بدقة أين سينام، وأين سيجلس، وأين سيأكل، ثم استأذنه قائلًا في لطف وود:

- أستأذنك يا سيدي في الانصراف، وأتمنىٰ لك إقامة سعيدة، وسنوافيك في غضون لحظات بما تحتاجه من طعام وشراب وملابس، عمت مساءً يا سيدي.

ما إن أُغلق الباب خلف بار محب بعد مغادرته، حتىٰ استلقىٰ مربتاح مفترشًا بكامل جيده النحيف أقرب مفترش لديه، وكان عبارة عن وسادة من الوسائد الحريرية العريضة والمتناثرة في أركان البهو الكبير، عاقدًا كفيه خلف رأسه، ومتطلعًا في ذهول إلىٰ السقف المزين برسومات ملونة لأيقونة المملكة وحارسها الإلهي.. الذئب الأبيض ذو العيون الزرقاء، يكاد لا يصدق عقله الصغير ما هو فيه، وما هو عليه، ويجتر باندهاش لحظات مضت، مستغربًا كيف واتته الشجاعة والجرأة أن يرفع رأسه ليرىٰ الملك، يسأل نفسه: "أأنا من فعلت ذلك"

استفاق من شروده أثر طرقات خفيفة تطرق بابه، وصوت أنثوي ناعم وخلاب يستأذنه للدخول، فأجاب متلعثمًا بحروف تجاوزت حلقه بصعوبة، ومن ثم انفتح الباب علىٰ مصراعيه، لتعبره أولًا فتاةٌ خمرية ترتدي غلالة حريرية بيضاء، وتحكم خصرها النحيل برباط حريري أسود لامع، ثم تلتها ثلاث فتيات متتابعات يرتدين غلالات بيضاء، ويحكمن خصرهن برباط أحمر قان، تحمل أولاهن فوق رأسها صينية من القش المزخرف، تحوي فوقها أوانٍ مغطاة يتسرب البخار منها، وتحمل الثانية صينية من القش المزخرف أيضًا، ولكنها أقل حجمًا من التي تحملها الأولىٰ، تحوي فوقها عدة أنواع من الخبز، بينما تحمل ثالثتهن بين يديها صينية فضية، تحوي علىٰ سطحها ثلاثة أباريق مختلفة الألوان، وكوبين من الفخار المصقول والمدموغ بعيون الذئب الزرقاء.



أمرتهن بوضع الصواني قبالته حيث يجلس مشدوهًا مما يراه، وما إن وضعن ما يحملن، سارع ثلاثتهن بالاصطفاف منتصبات عن يسارها منكسات رؤوسهن، بادرته قائلة في أدب:

- لك أن تختار يا سيدي واحدةً منا لمنادمتك الليلة.

صعقه ما سمعته أذناه ووعاه عقله، فأحمّر خجلًا، ثم ما لبث أن همهم بأحرف متقطعة، وإشاراتٍ بأصابعه، فهمت منها أنّ لا، فاستطردت:

- لا خيار لنا يا سيدي في تركك تقضي إقامتك وحيدًا، هذا ما أمرتنا به مولاتي، ونحن لا نعصي لها أمرًا، لذا يجب عليك أن تختار إحدانا، هذا أمرٌ لا بد منه وإلا قُتلنا، أرجوك يا سيدي.

أشار بأنامله إليها، فبقيت وانصرف الثلاثة الأخريات من فورهن، وأُحكم إغلاق الباب من الخارج.

استأذنت كبرىٰ بناتها أمها للدخول عليها في مخدعها، فأذنت لها، استلقت جوارها علىٰ الفراش تناغشها، ثم ما لبثت أن سألتها عن الغريب الذي اصطحباه معهما، فروت لها ما حدث منه أثناء مرور الموكب، وجرأته في حديثه مع أبيها، مما أثار إعجابه، فقرر اصطحابه معنا واستضافته لدينا بعضًا من الوقت، ولم تخبرها بنبوءة كبير الكهنة، فالأمور لم تتضح كامل صورتها في مخيلتها، ولا يزال هناك الكثير تود معرفته، علىٰ الأقل من الكاهن منت، خاصة نظراته لها الخفية، والتي تحمل الكثير من الرسائل، وعتها كرسائل ضمنية، ولكنها لا تزال مغلقة ولم تفتح بعد، وستسعىٰ حتمًا لفتحها



وقراءة واستيعاب ما حوته من أمور، ولن يكون لها ذلك متاحًا إلا إن انفردت بكبير الكهنة منت في خلوة تعبدية، وما أكثرها، لذا لم تكن قلقة، لكنه الشغف بمعرفة المستقبل وشهوة الفضول.

٤

عهد تاران لأحد أفضل معلمي جنوده بمهمة تأهيل مربتاح عسكريًا، وتعليمه كل فنون القتال من رمي السهام والحراب والمبارزة بالسيف، وكذلك مهارة القتال أثناء قيادته لعربة حربية ذات عجلات كبيرة، وحرص أن يكون التأهيل مكثفًا لينهيه في أقرب وقت، وأعد له ساحة ترابية ملحقة بالقصر الملكي من الجهة الشمالية، ومحاطة أيضًا بأسوار حجرية عالية ومنيعة، تحجبها عن أعين العابرين، ويحدها من الخلف جبلًا من خلفه جبال من خلفها جبال تمتد كمصفوفة هندسية حتىٰ شواطئ البحر الكبير، وكانت هي ذاتها الساحة التي تدرب فيها تاران علىٰ فنون القتال حين كان صبيًا وشابًا، في حقبة أبيه الملك تاران الأول، وما أكثر ما زاملته أخته الوحيدة سيرانة -والتي أصبحت فيما بعد زوجته وأم بناته- في تدريباته، وأظهرت تفوقًا ملحوظًا أثار انتباه مدربهما وقتئذ، والذي أثنىٰ بدوره علىٰ قدراتها القتالية أمام والدها تاران الأول.

بينما عهدت سيرانة لوصيفتها الأولىٰ مي رت برعاية مربتاح حياتيًا، وتوفير كل وسائل الراحة والترفيه له، وتلبية كل ما يطلبه أو يرغب فيه دونما أدنىٰ إبطاء أو تأخير، في انتظار أن تسنح لها فرصة مواتية

للتحدث مع منت كبير كهنة المعبد، وكشف أسرار ذلك الفتىٰ الوافد الجديد، الذي هبط عليهم فجأة من حيث لا يدرون أو يتوقعون، وكأنما سقط من السماء في ليلة قمرية، وفي غفلة من أهلها، وما أثار اندهاشها أكثر من اندهاشها بظهوره، كان ذلك الشعور الذي نما وتشعب بقوة في سراديب وجدانها نحوه، شعورًا لا تعرفه ولا هي قادرة علىٰ تصنيفه، ولكن تحسه فقط وتحسه بقوة، كأنما هو النبض يجري في خلايا دمها المتدفق في أوردتها وشرايينها، شعورًا لم تعهده من قبل، فلا هو بالحب وقد مارسته من قبل، وأحبت تاران وتزوجته وأنجبت منه، ولا هو بالكره وقد كرهت أمها من قبل، حين تآمرت مع قواد جيش أبيها لقتله والتخلص منه، لتفسح المجال لابنها الوحيد ليعتلي عرش المملكة، رغم اقتناعها التام بضعفه وطيبته الزائدة عن المعتاد، وزهده الواضح في كل ما هو يتطلب بذل جهد أو تضحية ما في سبيل تحقيقه، لا لشيء إلا خوفها من انقلاب نفس القادة علىٰ مليكهم بعدما أقعده المرض العضال، فارتأت وقتئذ أن تقدمه أضحية لهم، وتكتسب طاعتهم لها ولابنها الملك الجديد، كان ذلك الحدث هو ما أثار حنق سيرانة، وكراهيتها الشديدة لأمها، فقد كانت تعشق أباها وتفضله علىٰ كافة الرجال، حتىٰ علىٰ أخيها سنوت، كان هذا اسمه الحقيقي قبل أن يتولىٰ الملك خلفًا لأبيه، ويصير لقبه تاران الثاني.. لذا عمدت في بدايات ملكها أن تتخلص من أمها، والقادة الذين تآمروا معها، وقتلوا أباها، وكان منت هو الشخص الوحيد الذي

أطلعته علىٰ مكنون صدرها، فوقف بجانبها، وأيدها وشد عضدها، وشجعها حين أسّر لها أثناء خلوة تعبدية جمعتهما معًا، أسّر لها أنّ الإله سيت يؤيدها، بل وأنّ تلك رغبة الإله نفسه، فسيت لا يقبل الظلم ولا يرضاه كذلك لابنته، وسيرانة ظُلمت حين قتلوا أباها، أفلا ينتصر الإله لابنته؟!

كانت سيرانة مميزة بذكائها المفرط منذ نعومة أظافرها، كما تميزت بالشجاعة والجرأة، وأبدت مهارة ملحوظة في ممارسة كافة فنون القتال، وما أكثر ما تفوقت علىٰ سنوت في تسابقهما بالعربات الحربية خلال سني صباهما، رغم أنها الأصغر بخمس سنوات، والأقل تدريبًا، إلا أنّ أحدًا لم يلحظ قوة دهائها وشدة مكرها، بل وطمعها في السيطرة علىٰ عرش مملكة الذئاب، إلا واحدًا.. شخص واحد فقط تنبأ بذلك منذ زمنٍ بعيد، لكنه أسّرها في نفسه، آملًا أن تكتشف ذلك بنفسها، وها هي قد فعلت، وأيدها حين فعلت ليس لأنها إرادة سيت كما أخبرها وأشاع ذلك وقتئذٍ، وليس انتصارًا لظلم وقع عليها وآلمها، ولكن من أجل نفسه.. نفسه فقط، فقد كان علىٰ يقين تام أنّ الملكة الأم تكرهه، وتكفر بالإله سيت، بل وتكره العبادة والتعبد، فقد كانت ملحدة لا إله لها سوىٰ نفسها، وأنّ خطوتها التالية بعد التخلص من زوجها تاران الأول هي التمهيد للتخلص منه أيضًا، بل والتخلص من الإله سيت نفسه، كانت امرأة فوضوية متحررة تعشق السهرات والحفلات والصيد، تنتشي بمشاهدة الدم يُراق، لا فرق عندها أكان دم حيوان أم دم إنسان، فتفجر الدم من الجروح كان وحده كفيلًا



باشتعال شهوتها، وسيئ الحظ من أوجده الإله في طريقها أثناء ممارستها لهوايتها المفضلة الصيد، سواء كان راعيًا للأغنام، أو مسافرًا منفردًا، أو عابرًا ضل طريقه في الصحراء.

كان منت يعرف كل دقائق أسرار العائلة الحاكمة، وكان يحظىٰ بثقة تاران الأول، ثقة عمياء لا يشوبها شك، أو يعتريها بعض ريب، وكيف لا يثق فيه وقد كان منت ساعده الأيمن، والمؤسس الحقيقي لديانة سيت، ذلك الإله الذي اعتمده تاران بديلًا عن ليون، ذلك الإله الذي أورث قومه الهزائم المتكررة، وأذاقهم الويل والثبور علىٰ إيدي السدرانيين، أولئك الشرذمة المتفرقة قليلة العدد، فبرغم قوته وشجاعته، إلا إنه كان إلهًا غبيًا شديد الحماقة لا عقل له البتة، أورث قومه الذلة والمهانة رغم كثرتهم وتفوقهم الاقتصادي والمعيشي، فساعده منت علىٰ المضي في ذلك التبديل، وعضده في ذلك فكان أول من آمن به بعده، وأقنع القوم بالإيمان به وعبادته، فسيت وإن كان أقل قوة من ليون، إلا أنه شديد الذكاء وداهية بكل ما تحمل الكلمة من معنىٰ، بل ويتمتع بالقوة أيضًا، فدانت له قلوب القوم وعقولهم، وسرعان ما آمنوا به، وبملكهم، وبكاهنهم الجديد، فبدأت بشائر الانتصار تلوح في الأفق، وتوالت هزائم السدرانيين الواحدة تلو الأخرىٰ.

كان منت رجلًا ضخم الجثة أبيض البشرة علىٰ خلاف لون بشرة قومه بما فيهم الملك ذاته، لذا كان مهابًا مرهوب الجانب لاختلافه عنهم،



ولسديد رأيه، ولإخلاصه في عبادة سيت، وإرساء قواعد وقوانين وطقوس عبادته.

٥

أخيرًا واتتها اللحظة التي انتظرتها، الليلة موعدها الأسبوعي للصلاة في المعبد الكبير، كان من الطبيعي والمعتاد أن تصطحب معها بناتها لتقديم القرابين والتقرب من الإله سيت، وكانت تلك معضلتها الرئيسية؛ فهي ترغب في الانفراد بكبير الكهنة، ويستحيل عليها الإقدام علىٰ ذلك في وجود بناتها في نفس المعبد، ومع نفس الكاهن، فمنت هو الكاهن الوحيد المسموح له بمباركة الأسرة المالكة، سنة استنها تاران الأول، ونهج نهجها سلفه تاران الثاني، إلا أنّ الفرج جاءها من حيث لا تحتسب، فقد كفاها منت نفسه مشقة البحث عن مخرج وحل لهذه المعضلة، إذ أرسل رسولًا لتاران يخبره أنّ صلاة الليلة صلاة خاصة بالسيدات دون الفتيات، هكذا طلب الإله سيت، وما علىٰ تاران ومنت نفسه سوىٰ السمع والطاعة.

غرفةٌ ضيقة لا نوافذ لها، ذات باب لا يزيد ارتفاعه عن طول ذراعين واتساعه مثلهما، علىٰ جانبيه تمثالان لذئبين من حجر الرخام النقي، بداخلها أربعة مقاعد حجرية، كل مقعد يحتل ركنًا من أركانها الأربعة، وأمام كل مقعد حجر جيري مقعر السطح ذو شكل مخروطي، وفي منتصفها ينتصب عمودان يصلان أرضيتها بسقفها، منحوتان بدقة فائقة كأنهما ذئبان يقفان علىٰ أقدامها الخلفية، بينما أقدامهما الأمامية

يلامسان السقف، والرأسان مشقوقان طوليًا فبدت كل عين من العيون الأربعة ذات اللون الأزرق المشع كأنها تنظر إلىٰ جهة من الجهات الأربعة.

تقدمت سيرانة بخطىٰ رشيقة واثقة تتبعها وصيفاتها تقطع الردهة الطويلة الممتدة بين بهو المعبد وغرفة كبيرة الكهنة، وما إن دنت من باب الغرفة توقفت وصيفاتها عن التقدم، وواصلت وحدها المضي في اتجاه الباب وسط أبخرة ذكية تفوح في كل اتجاه، وموسيقىٰ جنائزية تصدح ويتردد صداها، لا يبدو لناظرٍ عازفيها، انحنت سيرانة نصف انحناءة، وولجت إلىٰ الداخل متجاوزة الباب الضيق.

كان منت في انتظارها، حيته بإشارة من يدها، فرد التحية بانحناءة خفيفة وأشار لها أن تتخذ مجلسها المعتاد، فجلست بعد أن وضعت ما في يدها من قطع ذهبية في الجوف المقعر للحجر المخروطي المنتصب أمام مقعدها.

ردد الكاهن بضع كلمات لم تفهم منها شيئًا، ثم ألقىٰ ببعض حبات البخور في آتون صغير مشتعل، ثم اتخذ المقعد الأقرب لها عن يمينها وجلس في مواجهتها، بادرته:

- أخبرني يا كاهني العزيز منت عما يعده الإله سيت لي في المستقبل القريب.

- كل الخير يا مولاتي.. كل الخير.

صمت هنيهة وقلّب كفيه مرات ومرات قبل أن يستطرد:

- ينتظرك يا مولاتي مستقبل عظيم فتهيئي له.

- وماذا عن مربتاح؟ أهو من نبأت تاران عنه؟

- نعم يا مولاتي هو، لقد قرأت ليلتها حروف اسمه في جبهة مولاي حين واجهه قبالة المعبد، وعندما خلوت بنفسي قرأت اسمه منقوشًا علىٰ صفحة الماء، ومكتوبًا تحت السماء.

- لقد أوشك الجندي أن يقطع رأسه!

- لا يا مولاتي، لا أحد مخولٌ بقتله، ذلك الذي بدا لنا حينها كان وهمًا صنعه الإله سيت ليدبر اللقاء ليس إلا، ورحيله عن عالمنا إلىٰ العالم الآخر لن يكون إلا بعد رحيلك عنه، هكذا قرر الإله.

- لم؟ وما علاقته بي؟

اعتدل قليلًا في جلسته، ومد يده إلىٰ إناء مسطح بالقرب منه، أدناه إلىٰ أن صار أمامه تمامًا، دعاها أن تغمس كفيها في الماء ولا تجففهما إلىٰ أن يأذن لها، ففعلت ما أمرها به، كان شغفها بمعرفة ما يخبئه المستقبل لها أقوىٰ من أي رغبة أخرىٰ.

أمعن النظر في الماء بعد أن هدأت حركته لدقائق، مرت عليها كسنوات طوال، همهم وغمغم وأغمض عينيه وفتحهما قبل أن ينظر في عينيها مباشرة ويقول:

- علاقته بك علاقة أبدية يا مولاتي.

قاطعته مندهشة:

- وتاران؟!

- تاران؟! ماذا تقصدين يا مولاتي؟

- تاران زوجي، وأبو بناتي، وقبل كل هذا أخي، ومولاي، وأحبه.
صمتت برهة ثم أردفت مستنكرة:
- كيف يكون لي علاقة بهذا الفتىٰ مربتاح؟ وأنا.. أنا أحب زوجي، أهذا ما يريده الإله سيت؟
- لا لا.. لا يا مولاتي.. لا دخل لسيت بهذا، ما قلته لك آنفا قاله الماء لي، ولم يخبرني الإله به.. هذا قول الماء عن علاقة أبدية، وأخبرني أيضًا..
- ماذا أخبرك؟ قل بسرعة.. أخبرني.
- قال.. قال أنه ليس لك الآن، ليس في هذا الزمان
زادت دهشتها أكثر وأكثر
- عن أي زمانٍ تتحدث أيها الكاهن؟ أنا لا أفهم شيئًا، كيف لا يكون لي الآن ويكون لي في زمانٍ آخر؟!
- زمانٌ لاحق يا مولاتي بعد رحيلكما بآلاف السنين، ستلتقيان مرة أخرىٰ في جسدين آخرين، تحديدًا في عامٍ يُقال له ألفان وعشرون بعد الميلاد.
- ميلاد؟! أي ميلاد؟ وميلاد مَنْ أيها الكاهن؟
سكتت في محاولة منها للتماسك وتهدئة روعها، ثم استطردت:
- أنت أيها الكاهن تزيد الأمر عليّ صعوبة، فلم أعد أفهم شيئًا مما تتفوه به، من أراجيف، كلها تبدو كطلاسم لا حل لها.



أعـاد الـتمعن في صـفحة المـاء السـاكن أمامـه، ثـم همهـم دون أن ينظـر إليها:

– ستلتقيان يا مولاتي، في ليلة قمرية من ليالي منتصف عام ألفـين وعشرين، حينها وحينها فقط سيكون لك.

٦

من لغز إلىٰ لغز ومن حيرة إلىٰ أخرىٰ، هذا حالها، وذلك يؤرقها فلا يغمض لها جفن، ذهبت إليه لتفهم ما يحدث، فما زادها لقاؤه إلا غموضًا فوق غموض، فلا هو طمأن قلبها ولا هو قلل من ثورة فضولها العارم كسيلٍ يكتسح، وريحٍ عاتية لا تبقي ولا تذر.

ذهبت إليه بسؤال يتوق إلىٰ إجابة، وعادت بأسئلة لا إجابة لها: ما كنه العلاقة الأبدية بينها ومربتاح؟ أي ميلاد هذا الذي أخبرها عنه؟ وأي زمنٍ ذلك الذي ستبعث فيه حيةً في جسدٍ آخر؟ بل والسؤال الأهم والذي لم تطرحه عليه: من هو مربتاح؟ من يكون؟ ومن أين أتىٰ؟ بل ولم اختاره الإله سيت؟ ألغاز كلما حاولت سبر كنه أحدهم، انبثق عنه ألغاز أخرىٰ!

الفجر يجتاز بحر الظلام الممتد أمام عينيها، ولكن الظلمة تزداد داخلها، فما زالت روحها تائهة في صحراء قفار، وما زال القلق مسيطرًا علىٰ جوارحها، وما يزال الفضول له اليد العليا علىٰ ما دونه من غرائز.

هتفت بها نفسها تنشد الراحة" تذكري يا سيرانة.. تذكري ما أخبرك به عن الميلاد واللقاء، كان من أخبار الماء وليس من أخبار الإله سيت،

أي أنه تنجيمًا ليس إلا، قد يكون صحيحًا وقد يكون زيفًا، لو كان قول الإله فلا حيلة لك في الأمر، وما كان بمقدورك سوىٰ السمع والطاعة، أما وأنه من قول الماء وتنجيمًا من منت، فلك أن تتفحصيه وتمحصيه، لك أن تتشكك فيه وفي سلامته كله أو جزءٍ منه، لك أن تلجئي للسحر والسحرة"

لمعت الفكرة في عينيها لمعان برق في ليلةٍ كاحلة، فهتفت بأعلىٰ صوتها وهي تتطلع للسماء: "أشرقي يا شمس سيت"

مع أول شعاع شمسي يمد طرفه ويلامس قمة جبل تان، استدعت كبير الخدم، وأمرته أن يأتي لها بكبير سحرة تون، فانصرف من أمامها لا يلوي علىٰ شيء، وجهته حي السحرة في الجانب الغربي من المدينة.

أخبرتها نيفتر أن الساحر سيجمر بالباب ينتظر الإذن له بالمثول بين يديها، وأخبرتها أيضًا أنها قد أعدت لهما متكأً مناسبًا في الغرفة المجاورة لغرفة التعبد كما أمرت.

غرفةٌ واسعة ذات شرفة كبيرة تطل علىٰ حديقة غناء، لها بابان مذهبان، وكما كل الأبواب في القصر أمام كلٍ منهما تمثالان رخاميان لذئبين أبيضين ذوي عيونٍ زرقاء.

جلس الساحر حيث أشارت له سيرانة بالجلوس:

- فلتأمر مولاتي وعلىٰ عبدها سيجمر السمع والطاعة.

- أريدك أن تقرأ طالعي يا سيجمر، فأنا.. أنا قلقة من الغد المنظور، ولا أدري لماذا؟

- أمرك مطاع يا مولاتي.

صمت برهة، ثم أخرج من صرةٍ يحملها بعض القطع الحجرية، ووضعها أمامه علىٰ بقعة صغيرة من الأرضية الرخامية، وأغمض عينيه وهمهم ببعض كلمات لم تفهم منها شيئًا، ثم نظر في اتجاهها دون أن تقع عيناه في مرمىٰ عينيها المتحفزة، وقال بهدوء:

- استسمح مولاتي أن تنتقي حجرًا من تلك الأحجار.. حجرًا واحدًا يا مولاتي.

مدت يدها وانتقت حجرًا ذا لونٍ مائلٍ للزرقة.

بادرها قائلًا

- أدنيه من صدرك ثم ادعكيه بكفيك يا مولاتي.

فعلت ما طلبه منها حرفيًا ودون تفكير، فمد يده إليها هامسًا أن تضع الحجر في كفه، وتحذر أن تلمس أناملها جلد يده، ففعلت.

أمعن النظر في نتوءات الحجر الأزرق، وهو يقلبه بلطف وأناة بين كفيه المفتوحتين، ثم قال فيما يشبه الهمهمة، وبنبرة صوت بدت لها لأول وهلة مختلفة تمام الاختلاف عن نبرة صوته فيما تفوه به من قبل:

- أمام مولاتي طريق طويل تصطف أشجار سامقة علىٰ جانبيه، وبين الأشجار زهور صفراء، وبين الزهور ثمار خضراء زاهي لونها، الطريق تنمو من أرضيته ورود بيضاء، مولاتي تسير بخطىٰ واثقة، تنظر أمامها ولا تلتفت خلفها مطلقًا، في منتصف الطريق فتىٰ.

- صفه لي يا سيجمر.. صف لي ملامح هذا الفتىٰ.



قلّب الحجر مرات ومرات، ملامحه يكسوها القلق، الذي ما لبث أن تبدل إلىٰ إحباط، فنكّس رأسه بينما حبات عرق تتدافع ناتئةً من تجاعيد جبهته، وبدا تعرق كفيه أكثر بروزًا وجفافًا.

- شبحٌ يا مولاتي.. شبح، ملامحه محجوبة، لا أراه من أي زاوية من الزوايا الأربع المنظورة، شبح يا مولاتي.. شبح لا ملامح له.

انتفضت واقفة وصاحت به غاضبة:

- كيف هذا؟! لم استدعيتك إذًا؟!

ارتعدت أوصاله، وارتجف جسده، وارتعشت يداه حتىٰ كاد الحجر أن يسقط من بين كفيه، فهو يعلم أنّ غضبها لا بد له من ثمن سيدفعه لتهدأ، وأنّ فشله في تحقيق ما استدعته بسببه جريمة عقابها قطع يديه وقدميه من خلاف، لذا حاول قدر طاقته أن يجد مخرجًا مما أوقع نفسه فيه، وإنه لبئرٌ سحيق، لن ينقذه منه توسل ولا رجاء، لن ينجيه نحيب، فقط الحيلة.. الحيلة هي طوق نجاته إن أتقن حبكها بما يكتسب قناعتها، تماسك وقال في هدوء:

- صبرًا يا مولاتي، لم أنته بعد من قراءة طالعك، فلا يزال لدي الكثير مما أخبرك به.

وقال:

- طالعك المزهر المضيء كشمس سيت.

عادت وجلست، وهي تنفث بقايا غضبها في كأسٍ بيدها ألقتها بعيدًا:

- هات ما عندك يا سيجمر، وليكن في علمك لن أغفر لك وأعفو عنك ما لم تخبرني كل شيء عن هذا الفتىٰ.

- مهلًا يا مولاتي، رويدًا.. رويدًا تنكشف الأسرار، وتظهر الملامح تباعًا.

كان سيجمر ذكيًا ماكرًا واسع الحيلة، وأدرك بفطنته أن الفتىٰ الذي يشغلها لا بد وأنه فتىٰ الموكب، ذلك الفتىٰ الذي تجرأ ونظر إلىٰ تاران، ولم يقطع تاران رأسه، بل اصطحبه معه إلىٰ قصره، ولكن كيف يصفه لها وهو لم يره؟ سأل نفسه، وبرقت في ذهنه الإجابة: "انظر في عينيها ستراه لأنها رأته، ولأنها شغوفة به فلا بد وأنه ماكثٌ في عمق عينيها" إذًا لا بد من حيلة ليرىٰ عينيها دون أن تشعر، وأدركته الحيلة قبل أن يدركها، رفع الحجر إلىٰ مستوىٰ عينيه، وقال لمولاته:

- أنظري إلىٰ الحجر يا مولاتي.

ألقت نظرة سريعة إلىٰ الحجر، لكنها كانت كافية ليرىٰ تفاصيل ملامح الفتىٰ في عمق عينيها، فهمهم بصوت مسموع متمنيًا أن يكون حدسه أنه نفس الفتىٰ:

- فتىٰ يافع ذو عينين عسليتين، وأنف مستقيم وشفاه رفيعة إلىٰ حدٍ ما فلا هي بالمكتنزة ولا هي بالرقيقة، بشرة جلده بين بين، فلا هي بالسمراء الداكنة ولا هي بالبيضاء الناصعة.

غمغمت متنهدة دون وعي منها:

- مربتاح.

سارع من فوره بالتقاط طوق نجاته:



- نعم يا مولاتي، مربتاح هذا هو اسمه مكتوبًا بالماء المقدس في نتوءات الحجر: م ر ب ت ا ح.

- أحسنت أيها الساحر.. أحسنت، والآن حدثني ماذا يقول الحجر عنه، وما سر علاقته الأبدية بي؟

الآن لم يعد يخيفه شيء، وقد أدرك غايتها، وما عليه ألا أن يقول لها ما يسعدها ويثلج صدرها، عفت عنه نعم، ولكنه الآن يطمع في كرمها وجزيل عطائها:

- يا مولاتي، الطريق طويل ومزهر وسيصحبك مربتاح من منتصفه إلىٰ حيث لا ينتهي، نعم.. نعم، لا أرىٰ نهايةً للطريق، إنها صحبة أبدية، أما ورغبتك في معرفة التفاصيل الدقيقة، فهذا يلزمه تعويذات وتراتيل ولقاءات أخرىٰ إن رغبت مولاتي وأذنت.

- لك ما شئت يا سيجمر، فليكن لقاؤنا القادم بعد يومين، يمكنك أن تنصرف الآن.

نادت علىٰ نيفر، فلبت من فورها، واجتازت الباب في خطىٰ سريعة ورشاقة ملفتة:

- نعم يا مولاتي.

- اصطحبي سيجمر إلىٰ بيت المال، وأجزلي له العطية، وليصحبه جنديان حتىٰ باب بيته.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.



٧

لم يكن أحد في المدينة يشعر بسعادة قدر السعادة التي يشعر بها يافيم مدرب مربتاح، لما أظهره تلميذه من تفوق وبراعة، وقدرة مذهلة على استيعاب أكثر فنون القتال صعوبة، وإجادتها في زمن قصير، فقد كان القتال أثناء قيادة العربة الحربية هو بلا منازع أصعب المهام القتالية قاطبةً، ولا يجيده إلا قلة نادرة ممن يمتهنون القتال، وعادة كان ذلك قاصرًا على الملوك وأبنائهم وقواد جيوشهم، وأكثر كفاءة في ذلك المضمار عادة ما يستغرق تدريبه شهورًا قد تمتد أحيانًا لسنوات، أما هذا الفتى فلم يستغرق تدريبه سوى بضعة أيام ليبلغ فيه مبلغه من الإتقان، ما أذهل مدربه، وجعله يشعر بفخر وغبطة، لا تقل عن غبطة سيرانة وهي تشاهده من شرفة غرفتها المطلة على ساحة التدريب، فقد كانت شديدة الحرص على متابعة تفاصيله الدقيقة، أحيانًا خلسة من وراء ستائر نافذتها المطلة على الساحة، وأحيانًا عيانًا بيانًا بوقوفها في شرفتها متكئة على سورها الرخامي شديد البياض، أما باقي تفاصيل يومه، فقد أوكلت هذه المهمة إلى نيفر لتمدها بدقائقها على فترات متباعدة خلال اليوم الواحد.

كان مربتاح -إن لمحها واقفة في شرفتها- ازداد ضراوة في القتال، وقاتل بشراسة وشجاعة جاهدًا أن يظهر لها تفوقه ومهارته، كان شيئًا ما قد بدأ ينمو بين أضلعه مذ رآها في عربتها الملكية، وترعرع منذ ذلك الحين حتى استفحل وأحكم سيطرته على مشاعره، لم يكن يدري

كنهه، إلا أنّ أمه أخبرته ذات ليلة من الليالي القليلة التي زارها فيها، أنّ ذلك الذي يشكو منه ليس إلا عشقًا، ونصحته أن يسعىٰ لمحوه بين أضلعه، ولا يبقي له أثرًا، كانت تخاف عليه من تجبر الملوك وسطوتهم، وتخشىٰ أن يقتلوه إن علموا بما يعتمل في صدره، وعىٰ نصيحتها وحاول لكنه فشل في إطفاء جذوة عشقه، فكلما حاول إطفائها ازدادت اشتعالًا، وكان عزاؤه الوحيد هو اهتمام الملكة به اهتمامًا لا تخطئه عين متابع، لم يكن حبًا كما تمنىٰ، كما لم يدر بخلده للحظة أنه اهتمام أم تحرص علىٰ تنشئة ولدها نشأةً سليمة، لكنه اهتمام من نوع خاص، لم يتثنىٰ لعقله الصغير نوعًا ما، وقلة خبرته بالحياة وبالنفوس البشرية أن يدرك ماهيته.

أما سيرانة فقد تجمعت الخيوط لديها، فكبير السحرة لم يدخر جهدًا في محاولة قراءة الأسرار التي تحيط بذلك الفتىٰ؛ ليخبر مولاته بها، لكن كل محاولاته باءت بفشل ذريع؛ فلجأ إلىٰ السحر وأفاعيله، لكنه فشل أيضًا أن يسحره، وكان كل ما أضافه من معلومات عنه إلىٰ الملكة لم يتعد معلومةً واحدة، وهي أن مربتاح مفتونٌ بها، عدا ذلك فهو محجوب بقوة الإله سيت، أمرته سيرانة أن يبقي الأمر سرًا بينهما، فقد كانت تعلم من قبل أنه محصنً بقوة الإله، لم لا وهو ابنه الوحيد، نعم الفتىٰ مربتاح ابن الإله سيت، لقد أخبرها منت بذلك في إحدىٰ خلواتها التعبدية، وحين أبدت دهشتها متسائلة:

– أللإله سيت ابن؟

أجابها بإيماءة من رأسه تعني بلىٰ.

سألته كيف، أجابها:

-تلك قصة طويلة.

أردفت في لهفة:

-قصها عليّ الآن يا منت، أنا منصتةٌ إليك.

سألها: أمولاتي تعرف معنىٰ "سيت"؟

أجابته من فورها: بالطبع أعرف، إنه إله الذكاء والقوة.

سألها: وماذا أيضًا؟

قالت: إله النور ذو العيون الزرقاء.

أضاف سائلًا: وماذا أيضًا؟

اعتدلت في جلستها حتىٰ استقام ظهرها، وسألته مندهشة:

- أهناك معنىٰ آخر؟

- بلىٰ، يا مولاتي.

- قل لي ما هو إذًا.

- إله العقل أو إله الحب بالعقل، وذلك هو بداية الحكاية يا مولاتي.

- كيف؟ أخبرني فأنا بي شغفٌ لمعرفة كافة التفاصيل.

أوقد مزيدًا من النيران، وأضاف إليها بعض حبات البخور، وانتظر قليلًا حتىٰ خفتت سحابة الدخان المتصاعد من الآتون المشتعل، ثم استطرد:

- في عـالم الـروح يوجـد الكثيـر مـن الآلهـة، وكـل إلـه يخـتص بمملكة من الممالك، أو بصفة مـن الصـفات، فإلهنـا سـيت مثلًا اختصاصه الأساسي هو الحب المتعقـل أو العاقـل، هـذا إضـافةً لما ذكرته مـولاتي آنفًـا مـن صـفات، وهنـاك إلهـة أخـرىٰ تخـتص بالحكمة والصبر، والريح، والمطر، والجمال، وإلهٌ يدعىٰ كيوبيد اختصاصه الوحيد الحب المجرد المبني علىٰ المشاعر والفيض الوجداني...

قاطعته:

- هذا الإله إذًا علىٰ النقيض من إلهنا سيت، أليس كذلك؟

- نعم، نعم يا مولاتي، لكن كل هؤلاء الآلهة لهم كبير واحـد هـو زيوس كبير الآلهة وهو حكيم وصبور وعادل...

قاطعته للمرة الثانية:

- وما علاقة كل ذلك بمربتاح وأبوة سيت له؟

- صبرًا يا مولاتي، ها أنا ذا في الطريق إليها، في مملكة غربية نائية ابتـدع أحـد أشـهر فلاسـفتها مقولـة فلسـفية أحـدثت ضـجيجًا وخلافًا شديدًا بين الآلهة، فمنهم من أيد مقولتـه وعضـده، وكـان الإله سيت علىٰ رأسهم، ومنهم من عارضـه وفنـد مقولتـه، وكـان علىٰ رأسهم الإله كيوبيد.

كانت سيرانة تصخي باهتمام شديد لكل كلمة يتفـوه بهـا منـت، فسـألته متلهفة:

- وماذا كانت مقولة الفيلسوف هذا؟

- كانت مقولته أنّ الحب ما هو إلا حب العقل، وما خلاف ذلك فهو هراء، لذا أيده سيت واشتعل غضب كيوبيد، واحتدم الخلاف بينهما حتىٰ استفحل وانتهي إلىٰ خصومة شديدة

- وماذا حدث بعد؟

- استاءت الآلهة الأخرىٰ، ما دعا زيوس كبيرهم إلىٰ التدخل لإنهاء الخلاف، فشكل محكمة إلهية تقضي بينهما بالحق والعدل.

لجأت المحكمة الإلهية المشكلة من آلهة الحكمة والعدل والفلسفة إلىٰ الاستناد علىٰ وقائع تاريخية موثقة عبر التاريخ الإنساني لاستيفاء حيثيات حكمها، وكان من بين ما دونته في أوراقها واقعة قتل قابيل لهابيل بدافع الحب المبني علىٰ الغيرة، وواقعة إيفا التي أحبت هتلر النازي في العصر الحديث، وانتحرت معه بدافع الحب وخشية الفراق، وكذلك قصة قيس الذي فقد عقله وجُنَّ، وهام وحيدًا في صحراء قاحلة جراء فقده لمحبوبته ليلىٰ العامرية في العصور الوسطىٰ، وخلصت إلىٰ الحكم لصالح إلهنا سيت، وقضت أن تمضي الإلهة أفروديت زوجة كيوبيد ليلةً كاملة بين ذراعي الإله سيت، وتحمل منه، وتلد قبيل الفجر، ومن ثم تغادر فجرًا عائدةً إلىٰ ممالك الشمال حيث زوجها كيوبيد.

- وهكذا تمت ولادة مربتاح، علىٰ ما أفهم.

- نعم يا مولاتي، هكذا تمت ولادة مربتاح بن الإله سيت.



٨

- ولكن قل لي ما حكاية هتلر هذا؟

- هتلر كان حاكمًا لبلد من بلاد الشمال، وكان متعصبًا لبني جنسه، ويؤمن بأفضليتهم علىٰ الأجناس الأخرىٰ من الأمم المجاورة، وتبني فكرة تميز الجنس الآري، وأعد جيشًا عظيمًا لغزو البلدان المجاورة وإخضاعها، أما إيفا فهي شابة فُتنت به وأحبته بجنون، وعندما هُزم في حروبه، أقدم علىٰ الانتحار، وانتحرت معه في نفس القبو.

- وماذا عن قيس؟

- قيس فتىٰ من جنس يُقال له العرب، عشق فتاة عربية حد الجنون، ورفض أهلها تزويجها له، فأنشد فيها شعرًا كثيرًا، ما أدىٰ إلىٰ ذيوع قصة حبه لها وجنونه بها في الكثير من القبائل العربية المجاورة.

- إذًا كلاهما الفتاة التي عشقت، وانتحرت في النهاية، والشاب الذي هام بأخرىٰ حبًا أدىٰ لجنونه، بسبب عدم تعقلهما، وأنهما خضعا لمشاعرهما وغيّبا عقليهما.

كان تاران بعيدًا كل البعد عن كل ما يجري من حوله، بسبب مرضه المفاجئ الذي أقعده عن الحركة، بعيد أن عهد لمدرب فنون القتال برعاية مربتاح وتأهيله ليكون قائدًا من قواد جيشه، وفشل طبيب القصر في الوقوف علىٰ سبب علته، ولم تنفع صلوات كبير الكهنة منت

وتبريكاته وبخوره في تغيير إرادة الإله سيت، هكذا قال آسفًا للملكة سيرانة، التي لجأت كعادتها إلىٰ ساحرها المفضل، ولكن بلا جدوىٰ، فما كان منها إلا التنبيه عليهم بعدم مصارحة الملك باستحالة برئه من سقمه، كما أمرتهم جميعًا، بالتعامل باهتمام صوري بمعالجة الملك، حتىٰ لا يشعر بخطورة مرضه، ويصيبه إحباط أو يأس، فامتثلوا جميعًا لأوامرها، إذ لم يكن بمقدورهم مخالفتها، وهم يعلمون قسوتها وشدة بأسها.

تولت سيرانة زمام الحكم من خلف الستار، وكان من أوائل قراراتها عزمها علىٰ تعيين مربتاح مساعدًا لقائد فرع العربات الحربية، ولكنها أجلت القرار إلىٰ أن تستشير كبير الكهنة، ويحصل مربتاح علىٰ مباركته المقدسة، فهذا منصب رفيع لم يعهد به من قبل إلىٰ شاب في العشرين من عمره، هي تعلم أنه ابن الإله سيت، ولكن ذلك سر لا يعلمه إلا منت وهي، لذا كان ضروريًا أن تتم مباركة مربتاح صوريًا من قبل كبير الكهنة وفي حضور قادة الأفرع الثلاثة، فلا يجرؤ أحدهم بعد مباركته القدسية أن يبدي تذمرًا أو امتعاضًا أو اعتراضا.



الفصل الثاني

كانت موافقتها السريعة للانضمام لعضوية نادي أدب مصر الجديدة، حينما عرض عليها رئيس النادي الانضمام، ليست عن رغبة في الاستزادة من فنون الأدب، وليست عن طمع في الاستفادة من مزايا كونها عضوة عاملة به، ولكن سببًا واحدًا كان هو دافعها الرئيسي والوحيد لذلك، وهو شغفها الشديد للتعرف على سعيد، ذلك الكهل الكبير رغم أن ملامحه تمنحه الكثير من الحيوية والرشاقة التي يفتقدها معظم أقرانه، ورغبتها الجامحة في التقرب منه والتي لا تدرك لها سببًا، ولا تدري ما يبرر انجذابها الشديد له عندما تلاقت عيونهما للحظة لا غير، ولا لتلك الرجفة التي عصفت بجسدها لحظة أن فاه بكلماته القليلة معتذرًا عن إبداء رأيه النقدي فيما ألقته من أشعار.

كل ذلك كان محور تفكيرها وهي تقود سيارتها الهوندا اليابانية أس أي أنتاج عام ١٩٩٢ – فهي السيارة المفضلة لديها والتي تعشق قيادتها بنفسها رغم قدم إنتاجها– تنهب أسلفت الطريق الدائري الرابط بين فيلتها في مدينة الشيخ زايد التابعة لمحافظة الجيزة في طريقها لحضور الأمسية الثقافية بنادي أدب مصر الجديدة، والكائن في شرق محافظة القاهرة.

أغلقت أبواب سيارتها بعد أن ترجلت منها، وتناولت مظروفين متوسطي الحجم، ومضت لتصعد إلى الدور الثاني من المبنى، حيث استقبلها الحاضرون بترحاب شديد.

جالت بعينيها باحثةً عنه بين الحضور، فلم تجده، طمأنت قلقها النامي في صدرها أنه لا يزال في الطريق، بل وربما يكون علىٰ وشك الوصول الآن أو بعد لحظات قليلة.

بدأت الندوة وانتهت ولم يحضر، رغم أنّ الأستاذ سامح أعلن أنه تلقىٰ مهاتفة منه أخبره فيها أنه في الطريق إليهم، ومعتذرًا عن تأخره قليلًا بداعي ربكة مرورية طارئة سببها أعمال إنشاء العديد من الكباري في الشوارع المؤدية إلىٰ مصر الجديدة.

بعد انتهاء الندوة انتحىٰ سامح جانبًا وأجرىٰ مكالمة هاتفية، بينما كانت سيرين تقف علىٰ مبعدة في انتظاره.

أنهىٰ المهاتفة، وعاد إليها قائلًا بنبرة حزينة:

- الأستاذ سعيد يعتذر عن عدم تمكنه من الحضور، واضطراره لعودته إلىٰ منزله، بعد أن اتصلت به زوجته وأخبرته أنها تشعر بضيق تنفس وألام مبرحة في مفاصل جسدها.

- شفاها الله وعافاها، هذه فيما يبدو أعراض الكورونا اللعينة.

- اللهم سلِّم، إنها سيدةٌ مسنة، وتعاني من أمراض عديدة.

- ربنا رؤوفٌ رحيم، إن شاء الله تشفىٰ وتتعافي في أقرب وقت.

صمتت برهة تحاول أن تخفي علامات الإحباط التي كست ملامحها، بل وغزت نبرة صوتها، واستطردت:

- هذا المظروف بداخله ديواني المطلوب لاستيفاء شرط العضوية.



تناولها منها ووضعه داخل حقيبته الجلدية السوداء، وما إن انتهىٰ بادرته قائلة:

- وهذا المظروف به دواويني أرجو من حضرتك فضلًا لا أمرًا أن تسلمه بالنيابة عني إلىٰ الأستاذ سعيد، وأبلغه تمنياتي بالشفاء العاجل لحرمه المصون.

تناول منها المظروف وضحك قائلًا:

- وأنا، أليس لي شرف قراءة دواوينك؟

تلعثمت خجلة، وقالت معتذرة:

- آسفة والله يا أستاذ سامح، سهوت في غمرة تعجلي للحضور، ولكن أعدك إن شاء الله الندوة القادمة سأوافيك بدواويني الثلاثة، ولي كل الشرف أن تقرأها وتمدني بكل ما تراه من ملاحظات ونصائح أنا في حاجة إليها.

- أمزح معك يا سيدتي، عن نفسي فقد قرأت لك الكثير، وأنا كما تعلمين من المعجبين بتناولك الشعري وأسلوبك المبتكر.

- ولو يا أستاذ، أعترف أنني أخطأت، وسأصلح ذلك الخطأ باعتذاري، وها أنا قد اعتذرت لك، وبإمدادك بنسخ من دواويني وقد وعدتك بذلك.

صمتت هنيهة ثم أردفت:

- الآن أستأذنك في المغادرة فقد تأخر الوقت، والمشوار بين سكني وهنا طويل جدًا، أستودعك الله وإلىٰ أن نلتقي الأسبوع القادم إن شاء الله.

وانصرفت تحث الخطىٰ إلىٰ حيث تنتظرها سيارتها المحببة إلىٰ قلبها، والذي تمكن منه الحزن لعدم حظوه بلقاء قريب مع الرجل الذي قلب حياتها رأسًا علىٰ عقب، إلا أنّ هاتفًا يسري صوته في داخلها يطمئنها أنّ سعيد سيتصل بها حتمًا، علىٰ الأقل ليشكرها علىٰ إهدائها كتبها له، ولم لا والنسخ الثلاث مدونٌ بها جميع بياناتها كبريدها الإلكتروني، ورابط حسابها في منتدىٰ التواصل الاجتماعي، وأرقام هواتفها الثلاثة.

٢

الشمس توشك علىٰ المغيب، ومن ثم تستحث الليل خطاه ليفترش أروقة وشوارع أحياء القاهرة، ويبدأ القمر مشواره الليلي في سمائها الصافية، فالليلة ليلة من ليالي تموز الحارة، سعيد يقف في شرفة غرفته يراقب عن كثب غروب الشمس بعينين قلقتين، فقد اختار هذا التوقيت بعد طول تردد لمهاتفة الأستاذة سيرين، راجيًا ألا يكون ذلك التوقيت غير مناسب لها، فيقع في حرجٍ شديد هو في غنىٰ عنه، وربما تسبب مكالمته لها مشكلة ما، وما إن أنهى المؤذن لصلاة المغرب نداءه، بادر سعيد بالصلاة في شرفته، وما إن اختتم الصلاة جلس علىٰ كرسيه، وتناول هاتفه واتصل:

- ألو...

- الأستاذة سيرين وجدي؟

- نعم أنا هي، من معي؟

- أنا سعيد.. سعيد حسين، سبق لي التعرف إليك في أمسية نادي الأدب بمصر الجديدة منذ...

قاطعته متهللة، فقد غمرتها سعادة انتظرتها طويلًا

- أهلًا أهلًا أستاذ سعيد، تذكرتك طبعًا، الناقد المعروف.

- أهلًا بك سيدتي، لقد تشرفت بمعرفتك، وأرجو أن يكون الوقت مناسبًا لمهاتفتك وشكرك علىٰ هداياك القيمة.

- حضرتك تتصل في أي وقت يناسبك، وأنا سأسجل رقم هاتفك الآن، المهم.. هل أعجبتك دواويني؟ أنتظر رأيك بشغف وقلق أيضًا

- قرأت بعض قصائد الديوان الأول وفق تاريخ إصداره، وبالفعل وبدون مجاملة لك أسلوب مميز في الصياغة الشعرية، أحسبه مسلكًا حداثيًا في الكتابة الشعرية.

كانت واقفة هي أيضًا في شرفة غرفتها، ترتدي عباءة خضراء مزركشة برسوم صفراء عند طرفي أكمامها وذيلها الفضفاض، فجلست علىٰ أقرب مقعد لها، وارخت رأسها للخلف، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تسأله:

- وهل نال إعجابك هذا التحديث يا أستاذ سعيد؟ أم أنه لا يروق لك؟ صارحني أرجوك فأنا أعرف عنك الصراحة وعدم المجاملة.

- سأصارحك يا سيدتي برأيي، ولك أن تأخذي به أو تلقيه وراء ظهرك ولا غضاضة.

- حاشا لله يا أستاذي، رأيك أيًا كان محل احترام وتقدير.

صمتت هنيهة ثم أردفت:

- والآن أخبرني، فأنا في شغف لسماع رأيك ونصائحك التي لن تبخل عليّ بها، أراك شخصًا كريمًا ولن تبخل عليّ بنصيحة أحتاجها.

- من زاوية أنه أعجبني، فهذا لا يرقىٰ إليه شك، فأنا أميل للتجديد والتحديث والابتكار، فقد سبق وحدّثت جماعة أبوللو في نهاية الأربعينات في نمطية الشعر العمودي، وتلاهم صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي وغيرهما لتحديث القصيدة الشعرية، وكذلك أمل دنقل، وانتهينا الآن إلىٰ قصيدة النثر، أما وأنك تتطلبين نصيحتي، فلا نصيحة تحضرني لك الآن بخصوص أشعارك، امنحيني بعض الوقت حتىٰ لا أكون متعجلًا في الحكم والتقييم النهائي، فما قرأته بضع قصائد فقط ومن ديوانك الأول، فلربما أنصحك الآن بشيء ثم أجد أنك تجاوزته في قصائد دواوينك الأخرىٰ.

صمت برهة كمن يفتش في ذاكرته عن معلومة يرىٰ فائدةً في ذكرها:

- في الحقيقة ألمح في قصائدك القليلة التي قرأتها خليطًا بين روحي أدجار آلان بو الأمريكي، ورامبو الفرنسي في قصيدته الأخيرة لعشيقته، فقد بدا لي تأثرك بهما ولو من زاويةٍ ما.

ابتسمت وقد سرّها ما قاله، بالإضافة إلىٰ شعور بعث في وجدانها ارتياحًا شديدًا، وكأن حروف كلماته بصوته الرخيم مخدرٌ شديد التأثير:

- فعلًا يا أستاذ، أنا من أشد المعجبين بأشعارهما، وخاصة أدجار آلان بو في تناوله النفسي، ونفسه الشعري الدافئ والموغل في دهاليز النفس البشرية وعلاقتها بالعالم الخارجي.

سكتت وتنفست بعمق ثم استطردت:

- معك كل الحق يا أستاذي، فلقد وضعت يدك بسهولة علىٰ ما لم يلمحه أحد ممن يتابعون أشعاري، ومعك كل الوقت يا أستاذي، وأنا سأنتظر ولن أمل الانتظار ما حييت.

- أشكرك لثقتك سيدتي، وأعدك ألا أتأخر عليك.

- أنا من يجب عليه شكرك، وكما قلت لك آنفا، يمكنك الاتصال في أي وقتٍ تشاء.

- لا.. لا، لعلك لا تدركين كم القلق الذي عصف بي قبيل اتصالي بك، خشية ألا يكون التوقيت مناسبًا لحضرتك، لذا

أرجو منك أن تواظبي فقط علىٰ حضور الندوات الثقافية في نادي الأدب، حيث يمكنني محادثتك وإبداء رأيي بانتظام.

سكت لبرهة قبل أن يستطرد مستأذنًا في إنهاء المهاتفة، وواعدًا إياها أن يواصل قراءة دواوينها منذ الليلة، وكلما سنحت له فرصة للقراءة، فأشعارها لها الأولوية عمن سواها، فاغتبطت لوعده، وأسفت بينها وبين نفسها علىٰ انتهاء المكالمة، وكانت راغبة بشدة أن تستمر وتستمر، لا تدري لماذا، ولكن ما تدركه وتحسه من شعور أنها تعرفه وأنهما التقيا من قبل، ازداد تعمقًا في وعيها وتوغلًا في جوارحها، التقته ولكن أين ومتىٰ لا تدري!

وضعت هاتفها الجوال فوق السطح الزجاجي لمنضدة مصنوعة من خشب الخيزران ذات شكل دائري، وأغمضت عينيها تتجول في سراديب ذاكرتها، باحثةً عن لحظةٍ ما ربما تلمح طيفه مختبئًا فيها أو عابرًا خلالها دون جدوىٰ.

نهضت متثاقلة، والتقطت هاتفها ومضت إلىٰ داخل غرفتها، ألقت بجسدها فوق الفراش، ناظرةً لسقف الحجرة تعد الساعات والأيام المتبقية علىٰ موعد انعقاد الأمسية.

٣

أمضت الليلتين السابقتين منهمكة في التجهيز لمراسم تنصيب مربتاح كمساعد لقائد سلاح العربات الحربية، والليلة موعدها مع وصيفاتها الأولىٰ، والتي استأذنت في الدخول عليها، فأذنت لها وأمرت خدمها

بالانصراف، بينما أصرّت ابنتها الكبرىٰ نوبخت علىٰ البقاء وعدم الانصراف، راجيةً أمها أن تبقىٰ، وتستمع معها لما سوف تخبرها به وصيفتها مي رت.

لم تبد سيرانة اعتراضًا، فقد لاحظت من ابنتها اهتمامًا زائدًا بمربتاح منذ اللحظات الأولىٰ له في ضيافتهم، لكنها تغاضت عن ذلك في حينه، لانشغالها هي أصلًا بسبر أسراره .

دخلت مي رت ترفل في ثوبٍ أبيض فضفاض وشفاف، بلا أكمام وعاري الصدر محكومٌ خلف عنقها بشريطتين معقودتين بعناية، وشعر فحمي اللون يتماوج مع خطىٰ قدميها.

دعتها الملكة للجلوس علىٰ السرير المستلقية عليه، فجلست علىٰ طرف الفراش، بينما كانت ابنتها تجلس علىٰ الجانب الآخر من السرير المصنوع أعمدته من العاج الخالص.

- هاتي ما عندك يا مي رت، مضىٰ يومان ولم يسعفني الوقت للاستماع إليكِ.

- أعلم أنّ مسئوليات مولاتي كبيرة وتتعاظم خاصة بعد مرض مولاي، واضطلاعك بكافة شئون الحكم، وأعلم كم يسببه ذلك لك من إرهاق، بارك سيت خطاكِ.

سكتت للحظة تستجمع أنفاسها لتدلي بما في جعبتها من أخبار، لكنها انتبهت فجأة لوجود نوبخت، وما فاض علىٰ ملامحها من تركيز للإصغاء، فترددت لكن سيرانة بادرتها:

- هاتي ما عندك يا مي رت، ولا يشغلنك وجود نوبخت.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي، حاولت كما أمرتِني بأغرائه بنفسي، بعد فشلت كل محاولات كبيرة الخدم والخدم في استمالته.

قاطعتها سيرانة، وقد اعتدلت واستندت بظهرها علىٰ الحائط الحجري:

- وهل نجحت يا مي رت؟

بنبرة حزينة وصوت خفيض أجابتها:

- للأسف يا مولاتي، حاولت بكل الطرق ولم أنجح في استمالته ومضاجعته لي أو حتىٰ لمسي وتقبيلي، تصوري يا مولاتي، لقد غافلته ليلة أمس ونمت عارية بجواره علىٰ فراشه، واحتضنته لكنه كان نائمًا، حتىٰ غلبني سلطان النوم أنا الأخرىٰ، وعندما استيقظت في الصباح، تفاجأت به نائمًا علىٰ أرضية الغرفة!

قالت سيرانة مندهشة، بينما ندت عن نوبخت شهقة:

- ألهذه الدرجة؟! ربما...

صمتت لحظات تفكر ثم استطردت متسائلة:

- أترينه فاقد الرجولة يا مي رت؟ أخبريني فأنت خير من يفهم في هذه الأمور.

ضحكت، والتفتت بوجهها ناحية نوبخت، وقالت نافية:

- لا.. لا يا مولاتي، مربتاح مكتمل الرجولة، بل وربما يكون فحلًا لا ند له بين أقرانه، لكن يبدو لي أنه يعشق امرأة ما ويخلص لها اخلاصًا لا نظير له، ولا ولن يقبل سواها رفيقةً له،

يمكنك أن تقولي ذلك يا مولاتي، فأنا أرىٰ في نظرة عينيه امرأة أخرىٰ لا ملامح لها، وفي نبرة صوته الرخيمة، والتي يغلفها كم شوق لها يضطرم كآتونٍ مشتعل.

تنهدت سيرانة تنهيدة عميقة، وشردت بعيدًا في ليالٍ مضت حين أخبرها الكاهن منت أنه لها ولكن في زمن قادم بعيد كل البعد عن زمنهم.

أفاقتها من شرودها همهمة ابنتها:

- إذًا دعيني يا أمي أحاول استمالته.

التفتت إليها، رأتها وكأنها تراها لأول مرة، فتاة يافعة مكتملة الأنوثة، ممشوقة القوام وذئبتي صدرها تكادان تمزقان الغلالة الرقيقة التي تحبسهما خلف نسيجها، ثم قالت:

- لا يا نوبخت، لن تنجحي فيما فشلت فيه مي رت وهي الخبيرة المحنكة في هكذا أمور.

عادت لشرودها مرة أخرىٰ قبل أن تواصل:

- يبدو أنني مضطرة للتحقق من النبوءة بنفسي:

اعتدلت نوبخت، وكذلك مي رت مندهشتين، وقالتا في نفسٍ واحد:

- نبوءة! أية نبوءة؟

التفتت إليهما مستغربةً سؤالهما:

- نبوءة؟ أأنا قلت نبوءة؟!



- بلىٰ يا أماه، لقد ذكرتِ شيئًا عن نبوءة، وأنك مضطرة للتحقق منها بنفسك.

- لا عليكما، وأنسيا ما قلته آنفا، ولا تحدثا به أحد، والآن يمكنك الانصراف يا مي رت، وأنت يا ابنتي اذهبي لغرفتك، فأنا أريد أن أختلي بنفسي قليلًا قبل أن يغالبني نعاسٌ لا مفر منه.

٤

الليل طويل، بدا لها وكأن لا نهاية له، تجلس إلىٰ مكتبها والقلم يتردد بين أصابعها، والورقة أمامها يئست من الفراغ، فما من أحرف أو كلمات، كل ما فعلته دوائر حمراء لا تسمن ولا تغني من جوع، دعاها زوجها للنوم مراتٍ ومرات، حاولت ولكنها فشلت في أن يغمض لها جفن؛ الأرق يفتك بها ثماني وأربعون ساعة بدقائقها وثوانيها مرت عليها ثقيلة، كم من مرات أمسكت هاتفها لتتصل به وتراجعت، رغبة عارمة تكاد تطيح بها، كل همها أن تسمع صوته، لا تدري لماذا، هي تحب زوجها أو هكذا تظن أنها تزوجته عن حب، هو ثري ثراءً فاحشا، ولكنها أيضًا غنية وتنتمي للطبقة العليا، أبوها رجل أعمال معروف في الوسط التجاري المصري، أمها سيدة مجتمع تترأس جمعية خيرية لرعاية مرضىٰ السكري، لذا لم تكن في حاجة إلىٰ ماله، أو طموحة للانتماء إلىٰ طبقة تعلو طبقتها، تزوجته عن حب أو هكذا فهمت مشاعرها وقتئذ أنها مشاعر حب، تساءلت إذًا بماذا تصنف ما تشعر به

الآن، منذ التقته لأول مرة في تلك الليلة من ليالي تموز الحارة، إن لم يكن حبًا فماذا إذًا؟ أهو الفضول؟ أم ماذا؟ مشاعر عميقة عمق البحار، ولهفة كاسحة كفيضانٍ لا يقف أمامه شيء، تساءلت أهي الرغبة في الاستفادة من علمه؟ ضحكت ساخرة من نفسها: "منذ متىٰ وأنت تهتمين بآراء النقاد فيما تبدعيه؟! أهو الغموض الذي أحاط به منذ التقيتما؟ أهو كبرياؤك المجروح لتمنعه عن إبداء رأيه؟" ضحكت للمرة الثانية، حدثتها نفسها: "وهل كبرياؤك جُرحت؟! الرجل لم يقل شيئًا واعتذر، زوجك قال لك ربما هناك ما يشغله، ثم ألم يخبرك الأستاذ سامح أنّ زوجة سعيد تعاني من أمراض كثيرة؟ لا تخدعي نفسك يا سيرين، وابحثي عن سبب آخر.. سبب يبرر تعلقك غير المبرر به، ولا تركني لإحساسك أنكما التقيتما من قبل في مكانٍ ما، وزمنٍ ما قبل تلك الليلة المشهودة، فهذا حدث عارض يشعر به معظم الناس، ابحثي.. ابحثي يا سيرين"

أشرقت الشمس وهي علىٰ حالها، أشار عليها زوجها قبل انصرافه أن تتصل بطبيب العائلة، ملمحًا أنّ حالتها النفسية تدهورت، وأنه يخشىٰ عليها من التعرض لاكتئاب نفسي لن تحمد عاقبته هذه المرة، ذكّرها أنّ من يراها الآن لم تكن هي، بل سيرين وقت أن تعرّف عليها وكانت تعاني من حالة اكتئاب إبان وفاة أخيها المفاجئة، أنها نفس الأعراض لذا نصحها باستشارة الطبيب، أجابته أن لا داعي لقلقه، وفي سريرتها لم يكن يشغلها سوىٰ احتساب الدقائق حتىٰ بلوغ عقارب الساعة

العاشرة صباحًا، كان قرارها الاتصال به لا رجعة فيه هذه المرة، وقد عزمت أن تضع حلًا لهذه الحيرة التي تعصف بها، أن تضع النقاط علىٰ الحروف، فلا يجوز أن تظل الورقة هكذا دوائر ودوائر فقط!

- صباح الخير أستاذ سعيد، أنا سيرين.
- صباح النور أستاذة سيرين.
- أرجو أن أراك الليلة في أمسية مصر الجديدة.
- إن شاء الله سأحضر، لقد اتصل بي سامح وأكد لي انعقادها في موعدها.
- لي رجاء عندك أستاذ سعيد.
- تفضلي يا سيدتي.
- هل يمكنك الحضور قبل الموعد بساعة فقط؟ فأنا أريد الانصات لرأيك ونصائحك، وكما تعلم وقت الندوة ضيق ولا يسمح لنا بفسحة جيدة من الوقت، رجاءً يا أستاذ.
- لا بأس يا سيدتي، إن شاء الله سأحاول.
- يمكنني المرور عليك واصطحابك إلىٰ الندوة.
- لا، لا داعي يا سيدتي، سأحاول أن أكون هناك قبل الندوة بساعة إن شاء الله.

كم كانت تتمنىٰ أن يوافق، ورفضه عرضها أصابها بإحباط، ولكن موافقته علىٰ الحضور مبكرًا كانت عاملًا مؤثرًا في تخفيف وقع إحباطها عليها، فقد حقق لها بموافقته الخطوة الأولىٰ في طريقٍ طويل، أصرت أن تبدأه غير عابئةٍ كيف تكون

النهايـة، أخيـرًا شـعرت بارتيـاح يغمرهـا، كمـا غمرهـا إحسـاس لذيـذ بالرغبـة في الاسـتلقاء في فراشـها الـذي هجرتـه لليـال، فاسـتلقت وسـرعان مـا غلبهـا نعـاسٌ جافاهـا، وآن الأوان للتصـالح بعد خصام.

٥

الليلة موعدهم مع تنصيب مربتاح في الصالة الكبرىٰ من المعبد الكبير، فهناك جرت العادة علىٰ الاحتفال بالمناسبات الكبرىٰ، أملًا في مباركة الإله سيت، وهل يوجد علىٰ سطح البسيطة من هو أجدر بمباركته من ابنه!

الصالة مضاءة بعشرات المشاعل يحملها فتيان المعبد بزيهم المميز والمكون من قطعة قماش زرقاء اللون تيمنًا بلون عيني الإله سيت، تستر الجزء الأسفل من أجسادهم النحيفة من الصرة إلىٰ الركبة، حفاة الأقدام حالقي الرؤوس، وفي منتصف القاعة يقف الكاهن منت بزيه الأبيض الفضفاض ولا أكمام له، يضع بين فينة وأخرىٰ بعض حبات البخور في البوتقة العريضة المشتعلة أمامه، أما قواد الجيش الثلاثة فيجلسون في الزاوية اليمنىٰ من القاعة، ومربتاح يقف منفردًا في الزاوية اليسرىٰ، والكل في انتظار قدوم الملكة نيابةً عن الملك تاران الثاني، بعد أن تعذر مجيئه لمرضه.

أُعلن عن قدوم الملكة فصدحت الموسيقىٰ من كل الزوايا، وأعادت الجدران العالية ترديد صداها، اتخذت الملكة طريقها مباشرة صوب

الكاهن، وتوقفت خطاها علىٰ بعد أمتار قليلة منه، فأشار الكاهن منت إلىٰ قائد سلاح العربات الحربية، فتقدم بخطىٰ ثابتة إلىٰ أن توقف منتصبًا علىٰ يمين الكاهن، ومن ثم أشار الكاهن إلىٰ مربتاح، فتقدم هو الآخر وانتصب واقفًا علىٰ يسار الكاهن، وعيناه لا تبرحان عيني مولاته، التي لاحظت تدفق الشوق منهما، فغضت الطرف قليلًا، ثم أشارت بيدها للكاهن لبدء اجراءات التنصيب.

كانت مي رت تقف خلف الملكة، وعندما لمحت نظرة مربتاح لمولاتها أيقنت بما لا يدع مجالًا للشك، أنّ الشاب مربتاح غارقٌ حتىٰ أذنيه في حب سيرانة، فهذه النظرة نظرة عاشق متيم، يستحيل أن تخطئ مدلولها، خاصة وهذا الكم من الشوق المتدفق من بؤبؤي عينيه، لا هدف له إلا عينيّ مولاته.

في طريقهما عائداتٌ للقصر، همست مي رت للملكة:

- لقد كشفت سره يا مولاتي.
- تقصدين مربتاح؟
- نعم يا مولاتي، مربتاح العاشق الوله المتيم.
- إذًا بوحي ولا تخشي شيئا.
- الفتىٰ مربتاح يعشق مولاتي.
- أنا؟ يعشقني أنا يا مي رت؟!
- نعم يا مولاتي يعشقك، بل هو غارقٌ في بحر عشقك.

صمتت لحظة ثم استطردت:



- نظرته لك يا مولاتي لم تخطئها عين مي رت، بل وسمعت خفقان قلبه، كان مدويًا يا مولاتي، وهو ينحني ليقبل قدميك بعد تنصيبه مساعدًا.

- حسنًا يا مي رت، لا تخبري أحدًا بذلك، وليبق السر دفينًا بيني وبينك.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.

عجلات عربتها الملكية تنهب الطريق الترابي المعبَّد في طريقها إلىٰ القصر، والمشاعل تتلألأ أنوارها علىٰ جانبيه، بينما الحيرة تنهب مشاعرها، وتدافع التساؤلات أعجز أفكارها عن العثور علىٰ إجابات، فبدت مثقلة الذهن كمن يحمل جبلاً فوق كتفيه، كلما حاولت إزاحته، نتأ جبلٌ آخر جواره، هي تحب زوجها حبًا صادقًا لا مرية فيه، تحبه منذ طفولتها أخًا، وفي صباها رفيقًا، وفي شبابها حبيبا، والآن.. الآن تحبه ملكًا وزوجًا وأبًا لبناتها الأميرات الثلاثة، فما كنه مشاعرها المتعاظمة نحو هذا الغريب الغامض؟ ذلك الذي ظهر فجأة، ونتأ كوتدٍ في ظهرها، ذلك الفتىٰ مربتاح الذي قلدته منذ لحظات وسام البطولة، أية بطولة قام بها؟! ألأنه ابن الإله سيت؟ ألأنَّه سر نبوءة أعلن الكاهن عنها في ليلةٍ ليلاء؟ أم لأنه ليس لها في هذا الزمان الآني، وسيكون ملك يمينها وتكون ملك يمينه في زمنٍ قادم، هذا ما قاله الكاهن منت، بل وأخبرها أيضًا متىٰ سيكون ذلك، إذًا ما سر تعلقها به

الآن؟ أعياها البحث عن إجابات، ولم يفت في عضدها عجزها، لقد اتخذت قرارًا ولن تنكص عنه، ستتحقق بنفسها بعد أن فشلت مي رت في أغرائه بمضاجعتها، وبعد أن أفضت لها بسره؛ أنه عاشق لمولاتها، ومي رت خبيرة رجال، لا قدرة لرجلٍ علىٰ مقاومتها، فكيف يرفضها شاب لا قيمة ظاهرة له حتىٰ اللحظةً، وقد دانت لها من قبل أجساد وعقول قادة جيش المملكة، فأخضعتهم لإمرة مولاتها حتىٰ صار ولاءهم لها أقوىٰ من ولائهم لتاران الثاني، فتىٰ لا يميزه شيءٌ سوىٰ نبوءة غامضة!

استيقظت من شرودها ومي رت تمد لها يدها لتترجل من العربة، وهي تهمس:

- مولاتي.. مولاتي، لقد وصلنا!

٦

وكما قال لورانس داريل في روايته الأشهر "رباعيات الإسكندرية": (هناك أشياء ثلاثة يمكن القيام بها مع امرأة، أن تحبها، أن تعاني من أجلها، أو أن تجعلها مادةً للأدب) هكذا حدثته نفسه محاولة التخفف من القلق المتزايد الذي ينمو بإصرار داخله، أثناء جلوسه علىٰ أحد المقاعد الخلفية في الحافلة، التي أقلته من الميدان الفسيح القريب من منزله في طريقها إلىٰ حي مصر الجديدة حيث مبنىٰ قصر الثقافة والمقر الدائم لنادي الأدب.

كان من الطبيعي له أن يستبعد الشيء الأول -أن يحبها- فهو يحب زوجته ورفيقة عمره حبًا لا يقل قوة عن حب روميو لجولييت، ولا أقل إثارة وهيامًا من حب بشار بن برد لبثينة، ولا أوهن جنونًا من عشق قيس لليلىٰ العامرية، بل لا يقل إصرارًا عن وله عنترة بن شداد بابنة عمه عبلة، لذا كان أن يحب هذه المرأة التي اقتحمت حياته فجأة، فقلبتها رأسًا علىٰ عقب أمرًا مستبعدًا، بل ومستحيلًا أيضا، أما عن الشيء الثاني من مقولة داريل في رباعيته الشهيرة "أن يعاني من أجلها" فذلك أيضًا نحاه جانبًا، إذ قالت له نفسه متسائلة: "ولم نعاني من أجلها؟!" وهكذا لم يبق أمامه سوىٰ الخيار الثالث من الخيارات الثلاثة التي أشار إليها لورانس، أن يجعلها مادةً للأدب، استحسنه وطابت له نفسه، فهو المسار الأقرب والأنسب لمسيرة علاقة ناشئة يشعر بقوتها ولا يجد لها مبررًا مقنعًا، فالأسئلة العديدة التي ما تفتأ تطرق رأسه ليل ونهار، من هي سيرين هذه التي تقض مضجعه؟ أرآها من قبل كما وقر في ذهنه لحظة أن تلاقت أعينهما؟ أهذا الصوت سمعه من قبل لحظة أن فاهت شفاهها بأول أحرف قصائدها؟ أين ومتىٰ؟ ذاكرته الحديدية -رغم كبر سنه- عجزت وتعجز عن التذكر حتىٰ اللحظة التي أعلن فيها سائق الحافلة عن محطته التالية، وكانت محطته لذا تهيأ للترجل من الحافلة، بعد أن أغلق نافذة الشرود والبحث عن إجابات إلىٰ حين.

أطفأ سيجارته قبل الولوج إلىٰ القاعة، وجدها جالسةً وعيناها معلقة بالمدخل، ما إن لمحته حتىٰ تهللت أساريرها، ونهضت مرحبة به

- اهلًا أستاذ سعيد، أشكرك من كل قلبي لتلبيتك دعوتي.

جلس أمامها مباشرة وقد بات أكثر اقتناعًا أن هذه المرأة ليست بالجديدة أو الهابطة فجأة كحورية سماوية في فضاء نادي الأدب، بل إنها داخله، داخله منذ زمن بعيد.

- أهلًا بك أستاذة سيرين، لقد كنتِ الأسبق في الحضور، وأرىٰ في هذا اهتمامًا تستحقين الشكر عليه، والإشادة به كمسلك أخلاقي يندر التمسك به في زمننا هذا.

كانت القاعة المضاءة خاليةً من سواهما، فلا يزال أمام توافد أول الحضور من الوقت ما لا يقل عن نصف ساعة، ويكون أول الوافدين في العادة الأستاذ سامح رئيس نادي الأدب، لتهيئة القاعة واتخاذ كافة التجهيزات لبدء الندوة في موعدها المعتاد، وكان عطرها فواحًا تغلغل في خلاياه، إلا أنّ اللهفة في عينيها كانت الأكثر إشعاعًا، والأقوىٰ سطوةً فأربكته وتحيّر من أين يبدأ! تعرق جبينه، فأخرجت من حقيبتها ذات اللون البني الداكن لفافة مناديل معطرة، ناولته أحدهم.

- الجو الليلة شديد الحرارة.

- فعلًا يا أستاذ، كما أنّ القاعة ليست مكيفة، والنوافذ مغلقة والمراوح يبدو أنها معطلة.

- لا.. لا، إنها تعمل، ولكني للأسف لا أدري كيفية تشغيلها، سأفتح النوافذ، وننتظر ريثما يأتي أحمد ويقوم بإدارتها، فهو الوحيد الذي يدري كيفية إدارتها

نهض وفتح كل النوافذ، ومن ثم عاد وجلس مرة أخرىٰ، بادرته قائلة:

- والآن أستاذي العزيز، أنا مصغيةٌ إليك، فقل ما شئت، لا أخفيك سرًا، أنا متلهفةٌ لسماع رأيك وتوجيهاتك.

كان سعيد لم يستقر بعد من أين يبدأ، لذا نحا بالحديث إلىٰ زاويةٍ أخرىٰ ريثما يهتدي ذهنه المنهك إلىٰ بصيص ضوء في نهاية نفق مظلم، علّ وعسىٰ يجد فيه متنفسًا ينقذه من عطرها، ويحول بينه وبين نظراتها المتلهفة لهفة عاشق.

- مدينتنا.. أقصد القاهرة في هذه الأيام من شهر تموز تكون عادةً شديدة الحرارة ليلًا ونهارًا، والأسوأ معاناتنا من ازدحام الحافلات، والاختناقات المرورية المتكررة...

قاطعته ضاحكة، فهي تدرك بغريزتها الأنثوية أنها أحكمت حصاره، فبات يبحث عن مهربٍ له.

- وأنا يا أستاذي العزيز عرضت عليك أن أصطحبك من منزلك، لأخفف عنك كل هذا العناء، ولكنك للأسف الشديد رفضت بإصرار، بل وأحرجتني.

- لا، لا لم يكن رفضًا بالمعنىٰ المفهوم، كما لم يرق لمخيلتي وفكري إحراجك يا سيدتي، بل كل الشكر لك، ولكنه الخجل يا سيدتي.

التقطت طرف الخيط ببراعة، فتلك فرصة سنحت أمامها، ولم تكن لتضيعها:

- ومم الخجل يا أستاذ ألأنني امرأة جميلة؟

٧

أنا امرأةٌ جميلة، أرىٰ ذلك في عيون كل من حولي.. تاران زوجي الحبيب، كبير الكهنة منت، قواد الجيش الثلاثة، حتىٰ مي رت تراني جميلة بل وأجمل منها، مي رت تلك الأفعىٰ الأرجوانية التي لا قدرة لرجلٍ علىٰ مقاومة سحرها الطاغي، ولا يملك ذكرٌ يراها إلا وأن يشتهيً مضاجعتها، هذه الأفعىٰ تراني أجمل منها، ليس لأنني مولاتها، ليس لأنها بئر أسراري وساعدي الأيمن، ولكن كأنثىٰ.. بعيون أنثىٰ، هي قالت لي ذات ليلة:

- أتأذن لي مولاتي أن أبوح لها بسري؟

فأذنت لها، فقد كنا - أنا وهي - في هذه الليلة لسنا ملكة ووصيفتها، بل كنا ندماء ليل بهيم، شربنا حتىٰ ثملنا، وكان من عادتي أن أخلو بها كصديقتين مرةً أو مرتين كل شهر قمري، نتسلل متنكرتين بلباس عادي مما ترتدينه نساء المدينة، ونذهب إلىٰ أطراف الصحراء، ونقضي ليلتنا نتعاطىٰ نوعًا من خليطٌ عشبي يعده الكاهن منت

خصيصًا لأجلي، مر الطعم بعض الشيء لكنه مريحٌ للعقل، وكذلك تحمل مي رت في حقيبة تعلقها علىٰ كتفها بعض قنينات خمرٍ، يجهزها لها كبير السحرة في كل مرة، فنشربها حتىٰ ينبلج الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر فنلملم حاجياتنا، ونقفل عائدات إلىٰ القصر، قالت:

- تعرفين يا مولاتي، لو لم أكن أنثىٰ وكنت رجلًا لما تركتك حتىٰ أقضي وطري منك، ولو أدىٰ ذلك لقطع عنقي بحد السيف.

حينها ضحكت ملء في، واستلقيت علىٰ ظهري، فتعرىٰ جزء من فخذي لدنًا لامعًا وقد انعكس عليه ضوء القمر، فكادت عيناها تغادر محجريهما وهي متحيرة أتستقرا علىٰ الجزء العاري من فخذي، أم ما بدا لها من تفاحتين تدليتا من صدري!

- ألهذه الدرجة أيتها الأفعىٰ؟!

ردت بعد أن تمالكت رباطة جأشها، وأسكنت الرجفة الشهوانية التي عصفت بها

- وأكثر يا مولاتي.. وأكثر، إنّ أنوثتك لا تقاوم.

تذكرت قولها هذا، ومر بخاطري للحظة طيف ذلك الفتىٰ مربتاح، وتساءلت أيمكنه مقاومة أنوثتي فتتحقق نبوءة الكاهن؟ أم سينهار أمامها فتفشل النبوءة؟ ألم يقل الكاهن أنه ليس لي في هذا الزمان؟! إذًا أنا أيضًا لست له، فإن أغريته وفعلها فلا نبوءة، ولا ابن لسيت، ولا نصر مؤزر علىٰ السدرانيين كما قالت النبوءة.

لا.. لا لن أضاجعه وأنا غير راغبةٌ فيه، أحب زوجي، وما يشغلني ويؤرقني هو النبوءة، والنبوءة فقط.
عليّ أن أمضي قدمًا فيما خططت له، وما علي إلا أن أنتظر ريثما تلوح في الأفق نذر حرب فاصلة مع السدرانيين، حينها فقط تتحقق نبوءة الكاهن، ولأبحث بعدها عن الزمن القادم، من سأكون وكيف سأكون؟ وكيف سيكون مربتاح؟ ها ها ها حبيبي في الزمن القادم كما قال منت، أوووه، هل أكون جميلة كما أنا الآن؟ هذا شيء مهم ويجب أن أتأكد منه، وإلا فليراجع الإله سيت قراره، ولا بأس أن يعدله، فلن أقبل أن أكون أقل جمالا، ولن أقبل أن أكون وقتئذ عجوز شمطاء، أو صبية مراهقة، يجب أن أنقل رغباتي تلك للكاهن، هذا إن أخبرني بما يناقضها، فهو لم يقل لي بعد، وأنا أيضًا لم أسأله عن ماهيتي في هذه الفترة الزمنية المستقبلية، فإن سألته وأجابني بخلاف ذلك، سأخبره أنّ عمري يجب أن يكون في نهاية الثلاثينات أو بداية الأربعينات، تلك الفترة العمرية هي الأمثل والأمتع للمرأة، ففيها تنضج رجاحة العقل، وتتوسد الثقة في الذات مكانها الذي تستحقه، ويشتد عود الأنثىٰ حتىٰ يبلغ كماله، وتبلغ أوج خبرتها الحياتية كأنثىٰ مكتملة الأنوثة، تتمتع بوليفها وتمتعه أيضًا، وليخبر الإله سيت بذلك، وإلا فليذهب الكاهن وإلهه المتغطرس إلىٰ الجحيم، ولن أنسىٰ أيضًا أن أخبره برغبتي أن يكون مربتاح أو أيّا كان اسمه في المستقبل قريبًا في عمره من فئتي العمرية، زاد عنها قليلًا أو قل.. لا بأس، عدا ذلك لن أقبل أن أعود للحياة مرة أخرىٰ، ويكفيني من النبوءة أن أهزم



السدرانيين هزيمة ساحقة، لا تقوم لهم قيامة بعدها، فيأمن قومي شرّهم إلىٰ الأبد، وليعد مرتاح إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ، ذلك شأنه فهو ابن سيت، ولن يعصىٰ له أمرًا، أما أنا.. أنا الملكة سيرانة ابنة تاران الأول مؤسس مملكة الذئاب، تاران الأول الذي منح سيت مكانته الإلهية، وأتىٰ به من الحضيض ونصّبه إلهًا، يجب ألا ينسىٰ الإله سيت ذلك، ويجب ألا ينسىٰ منت ذلك أيضًا، فأنا.. أنا الملكة زوجة ملك وابنة ملك.

٨

- هل يضايقك أن أدخن سيجارة؟

قالتها بينما يدها تعبث داخل حقيبتها، وتخرج منها حاملة علبة سجائر وتضعها علىٰ الطاولة التي علىٰ يسارها، لتعود مرة أخرىٰ وتعبث بأناملها داخل الحقيبة، وتخرج محتضنة قداحة مطلية بماء الذهب الخالص وتضعها إلىٰ جوار علبة سجائرها، وسعيد يراقب بعينيه تحركاتها المفاجئة، ولا يحرك ساكنا.. استطردت مبتسمة

- والآن سأدخن سيجارتي وكلي منصتٌ إلىٰ ما سوف تقوله مما لخصته من آراء وملاحظات حول دواويني..

سكتت للحظة، ووضعت ساقًا فوق ساق، واسترخت بظهرها إلىٰ الخلف بينما حلقات الدخان تتصاعد من بين شفتيها في دوائر صغيرة سرعان ما يتسع محيطها إلىٰ أن تتلاشىٰ، فاجأته:

- أعلم يقينًا أنك يا أستاذي العزيز طالعت عن كثب كل ما كتب عني وعن قصائدي، فذلك أمرٌ لا يغفله ناقد فذ مثلك، لذا أرجو منك أن تتناساه بل وتمحوه من ذاكرتك، فها أنا أمامك سيرين.. سيرين وجدي، دون ألقاب.. دون أحكام مسبقة، لك أن تسأل وعليّ أن أجيبك.

نقلة مفاجئة نحت بالحديث منحىٰ خاص لم يكن يتوقعه، فهو هنا في هذه القاعة، وقبل انعقاد الندوة بما يقارب ساعة زمنية، ليبدي رأيه في قصائد شعرية، وليس رأيه في شخصية قفزت في سفينته كحورية، بينما كانت السفينة تقترب من الشاطئ، والبحر منبسط خلفها سجادة زرقاء منبسطة إلىٰ حيث ينتهي الأفق، أربكته كلماتها، ففرك يديه بروية، محاولًا التغلب علىٰ خجله، سائلًا نفسه مستغربا: "أتخجل؟! منذ متىٰ يا عزيزي وأنت ما أنت؟! الكل بلا استثناء ترتعد أوصاله لحظة أن تهم بإبداء رأيٍ في نصٍ من نصوصه، أتخجلك امرأة"

وكأنّ طوق النجاة أُلقيّ إليه فجأة، رغم يقينه أنّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، كان الحضور المفاجئ للأستاذ سيد بجسده الضخم وضحكته المحببة الودودة طوق نجاته.

- يا أهلًا وسهلا، أنرتما النادي، يا لنا من سعداء إذ يجتمع نجمان تحت سماء قاعة نادينا.

جرّ كرسيًا خشبيًا وجلس بالقرب من سعيد، وأردف:

- عطرك الأخاذ يفوح عبيره متجاوزًا باب الدخول يا أستاذة سيرين، أحييك علىٰ ذوقك الرفيع في اختياره.



- شكرًا أستاذ سيد، دعوت الأستاذ سعيد للقاء مبكر، فلبىٰ دعوتي مشكورًا.

- الأستاذ سعيد أستاذنا جميعًا، كلنا نحترمه ونهابه لآرائه الصريحة، فهو لا يجامل أحدا، كما أنه خدوم.

صمت برهة وابتسم قائلًا:

- ومدخن شره أيضًا.

تفاجأت مندهشة، فهو لم يدخن سيجارةً واحدة منذ أن جلس قبالتها.

- حقًا؟!

وسارعت بفتح علبة سجائرها وقدمتها له تدعوه لتناول سيجارة منها، إلا أنه رفض بلطف متعللًا أنه لا يحبذ تغيير نوع السجائر التي اعتاد تدخينها، كما أنه لا يشعر برغبة في التدخين الآن، فأعادت العلبة إلىٰ موضعها السابق، ولم تستطع أن تداري خجلها من رفضه، وربما امتعاضها أيضًا إذ حدثتها نفسها: "ما بال هذا الرجل؟! كيف تجرأ ورفض دعوة أنثىٰ لمشاركتها متعة تدخين سيجارة؟! أنا سيرين وجدي، سيرين التي يتمنىٰ أعتىٰ الرجال وأكثرهم تحفظًا ابتسامة منها، ليخر راكعًا علىٰ ركبتيه أمامها، اهدئي يا سيرين، لا تفسدي اللقاء وأنت التي سعيتِ إليه، فالرجل يتصبب عرقًا منذ ألتقىٰ بكِ، ألم تلحظي أنه لا يزال جبينه يندىٰ؟ نعم، برر ذلك بحرارة الجو المحيط، لكنك لم تقتنعي بتبريره، فأنت علىٰ يقين أنه يتصبب عرقًا لحرارة اللقاء، فأنت ما أنت، وهو رجلٌ ككل الرجال، وإن رفض تدخين

سيجارتك، ثـم لا تـنسِ هـدفك الرئيسـي مـن هـذا اللقـاء فـلا تفسـديه، فيتلاشىٰ أو يتضاءل أملك في لقاءات أخرىٰ"

طالت فترة الصـمت، واستشـعر ذلـك سيد، ذلـك الرجـل الضـخم ذو العينين العسليتين الثاقبتين، فاستأذن متعللًا بالبحث عمن يعد لهم بعض فناجين القهوة، وما إن تـوارىٰ هابطًا إلـىٰ الـدور الأول، التفتـت سـيرين إلـىٰ سـعيد، وبادرتـه قائلـة بنـبرة لا تخلـو مـن جديـة ومغلفـةٌ بمسحة عتاب:

- لم رفضت سيجارتي يا أستاذ؟ ولا تقل لـي مـا تعللـت بـه آنفـا، فذلك لم يقنعني.

أرخىٰ جفنيه قليلًا متحاشيًا نظرتها الثابتة في بؤبؤي عينيه:

- لقد خجلت يا سيدتي.

ضحكت ملء فيها:

- مني؟ أتخجل مني يا أستاذ سعيد وأنا تلميذتك؟!

ومـدت يـدها وتناولـت علبتهـا واسـتلبت منهـا سـيجارة وأشـعلتها، وقـدمتها لـه قائلـة والابتسـامة تمتـزج مـع بعـض دخـانٍ غـادر مـن بـين شفتيها:

- لا تخجـل مني يـا سيدي، أنـا تلميـذتك وأنـت أسـتاذي دائمـا وأبدا.

مـع اقـتراب عقـارب السـاعة الحائطيـة والمعلقـة في منتصـف الجـدار الأمامي للقاعة من السابعة مساء، بـدأ توافـد الأعضـاء تباعـا، ومـن ثـم انتظمت المقاعد في صفوف متوازية ومتتابعة، خفت الضـجيج النـاجم

عـن الأحاديـث الجانبيـة، إلا أنّ الضـجيج الـذي يـدوي في رأسـها لـم يخفت، بل تصاعد وتصاعد حتىٰ كاد أن يفتك بها، تعنف نفسـها علىٰ فعلتها التي ما كانت لتفعلها لو كانت تملك ذرة عقل أو تعقل، إذ كيف تشعل سيجارة بين شفتيها ثم تقدمها له، وهي حتىٰ لم تفعـل ذلـك مع زوجها طيلة ١٥ سنة زواج! تساءلت في حيرة: "مـا الـذي اعـتراني منذ رأيت هذا الرجل"

٩

الليلـة حـارة وريـاحٌ شـديدة سـاخنة تعصـف بالمدينـة السـاكنة سـكون مـوتىٰ، كـأنّ البيـوت قبـور لسـاكنيها، الشـوارع يعلوهـا زخـات غبـار متتاليـة، وألسـنة المشـاعل تبـدو كأفـاعٍ تتلـوىٰ بـين خفـوتٍ وضـياء، وسيرانة تتقلب في فراشها، يأبىٰ النعـاس أن يهـدل لهـا جفنـا، ومطـارق تـدق جنبـات رأسـها، تُسـاؤلها في حيـرة: مـن هـذا الفتـىٰ؟ فـلا تحـرىٰ إجابة!

تنهض من فراشها متثاقلـة، وترتـدي فـوق غلالـة نومهـا الشـفافة عبـاءة حمراء اللـون تلامـس أطرافهـا أرضـية الغرفـة، تمضـىٰ صـوب الشـرفة الخلفية حيث الجبل يشكل حاجزًا لهبات الريح المتتالية، تتأمله تأمـل الوله الشبق، هناك.. خلف هذا الجبل الشامخ كم من مراتٍ اصطحبها والدها معه في رحلات صيده للظباء الجبلية، هناك علمها مهارة الرمي بالنبال، ومهارة القنص حتىٰ باتت تصيب الظبي في مقتلٍ برمية سـهمٍ واحـدة، هنـاك علمهـا ألا تخـاف مـن الـذئاب البيضـاء ذوي العيـون

الزرقاء، تذكرت كيف كانوا يتبعونها هي وأبيها عن كثب، تذكرت كيف كانوا يمزقون الفريسة بأنيابهم الحادة لحظة أن يصيبها سهمٌ أطلقه أبوها أو هي أطلقته، ثم يعودون متهللين، وعيونهم الزرقاء تلهج بالشكر لهما، قال لها ذات رحلة صيد:

- يا بنيتي، هذه الذئاب تحمي مملكتنا من الجهة الجنوبية، فلا يجرؤ عدو أن يتجاسر ويهاجمنا من خلفها بغتة، وإلا مزقته الذئاب إربا، فلا تخافيها واحرصي دومًا علىٰ إطعامها، فلا تهاجم مواشينا.

توقفت طويلًا تستعيد هذه العبارة وتتأملها، تذكرت أنه قالها لها هي خصيصًا وفي حضرة أخيها، تساءلت: لم لم يقلها له؟! أكانت تلك أيضًا نبوءة؟

مع أول زحف للفجر في سماء المدينة تراجعت الريح وهدأت ثورتها إلىٰ أن تلاشت، وها هي مي رت تستأذن مولاتها في الدخول عليها:

- صباحك سعادة يا مولاتي.

أجابتها دون أن تلتفت إليها، وقدماها تسلكان طريقهما المعتاد نحو حمامها الملحق بغرفة نومها.

- صباح النور يا مي رت.

توقفت صامتةً لبرهة من الوقت، ثم التفتت إليها قائلةً في ود:

- تعرفين ما عليك تجهيزه، فاذهبي وأعديه ثم الحقي بي.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.

ومضت تحت خطاها الواثبة في رقة ورشاقة إلىٰ حيث باب خزانة الملكة، بينما توارت سيرانة خلف باب حمامها، وكان عبارة عن ستارةٍ سميكة من القماش ذي اللون الأزرق، مطرزةٌ حوافها بخيوطٍ فضية.

المكان من الداخل مضاءةٌ أركانه الأربعة بأربعة مشاعل معلقةٌ علىٰ الجدران، ويتوسطه حوضٌ عريض دائري الشكل يتسع لشخصين أو ثلاثة، يحفُ محيطه الدائري قوالب حجرية من العقيق الأحمر، ما إن أنهت مي رت طقوس الاستحمام، بادرت بتجفيف الملكة، وتبعتها إلىٰ غرفتها إلىٰ أن جلست سيرانة علىٰ حافة الفراش، فبادرتها مي رت قائلة:

- اليوم موعدنا يا مولاتي مع جولتنا الشهرية في شوارع المدينة وأسواقها وأحيائها، أترغبين في ارتداء زي معين استعدادًا لها؟

- نعم يا مي رت، ولكن ذكريني أولًا ما كان لون العباءة التي ارتديتها في جولتنا الماضية؟

- أبيض يا مولاتي، تماثل تمامًا ما يرتديه نسوة المدينة.

- وكذلك العباءات ذات اللون الأزرق، ألا ترتديها نسوة المدينة أيضًا في تجوالهن بأسواقها؟

- بلىٰ يا مولاتي، العباءات البيضاء والعباءات الزرقاء.

- إذًا فلتكن عباءتي اليوم زرقاء اللون.

ابتسمت ثم ندت عن شفتيها ضحكة ساخرة، وأردفت:

- ربما يسعد ذلك الإله سيت ويغفر لي، فقد أغضبته ليلة أمس.

تأوهت مي رت مندهشة:

- أإلهنا سيت غاضب منك؟! كيف يا مولاتي؟

أشاحت لها بيدها في فتور:

- لا عليك، دعك من هذا الحديث، اذهبي وأحضري إحدىٰ العباءات الزرقاء من رف الخزانة.

عباءة زرقاء ذات قلنسوة حجبت ما يظهر من خصلات شعرها الناعم المسترسل علىٰ كتفيها كطفلٍ يتوسد فخذي أمه بعد طول غياب، ذات أكمامٍ طويلة متسعة عند أطرافها، بينما طرفها السفلي يلامس أرضية الغرفة، حاجبًا حذائها المجدول من جلد الثعبان والمتقن الصنعة، سألتها مي رت بنبرةٍ يشوبها لمحة اعتراض:

- ألن تنزع مولاتي سوارها الذهبي هذا عن رسغها؟

- تبًا لك يا مي رت، ألا تملي من سؤالك هذا؟! في كل مرة تسأليني وأجيبك أن لا، ولكنك لا تكفين عن تكراره، أي مللٍ هذا؟ ما عهدتك غبية أو حمقاء!

أجابتها مي رت بتودد وحنو أم علىٰ طفلها حين غضب:

- أنه الخوف يا مولاتي، أخاف عليك أن يلمح أحد عامة الشعب سوارك صدفةً، فيفتضح أمرنا.

ضحكت سيرانة وهي تربت بيدها علىٰ كتف مي رت:



- سحقًا لك يا صديقتي العزيزة، ويكأنّ الناس كلها تعرف أنّ الملكة تتقلد سوارًا ذهبيًا ثعباني الشكل، ورأسه ياقوتةٌ حمراء، فإذا رآه أحدهم صاح من فوره "إنها الملكة، إنها الملكة"

صمتت للحظة ثم عادت وجلست علىٰ حافة فراشها، وقالت:

- والآن يا مي رت، اذهبي بنفسك إلىٰ مربتاح، وأخبريه أن يتهيأ لمصاحبتنا في جولتنا اليوم، ولينتظرنا بمفرده عند شجرة السدر الضخمة المجاورة لساحة التدريب، ولا يخبر حراسه إلىٰ أين وجهته.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.



الفصل الثالث

١

ثلاث ليالٍ مضت لم يعرف النوم سبيلًا إلىٰ عينيها الأرقتين إلا لمما، كرر عليها زوجها نصيحته أن تستشير طبيب العائلة، محذرًا أنّ حالتها النفسية تزداد سوءًا، وأنّ ذلك بدأ يضع علاماته الفيزيائية علىٰ جسدها، فقد لاحظ أنّ وزنها يتراجع سلبًا بشكل ملفت، وأنّ الهالات السوداء حول عينيها تزداد اتساعا، فما كان منها إلا أن شكرته، وبررت ما تعانيه من أرق بانشغالها في مخاض قصيدة تأبىٰ أن تولد ولادةً طبيعية، ضحك منها ساخرًا:

- إذًا عليك باستشارة طبيب أمراض نساء، فلربما ساعدك في إجراء ولادةً قيصرية.

اعتدلت جالسة والتفتت إليه متحفزة كنمرة:

- منذ متىٰ تسخر مني يا أحمد؟!

حاول ضمها إلىٰ صدره بلطف وحنو، فأبت ودفعته بيدها في صدره:

- لا، لن أقبل منك هكذا أسلوب، خمسة عشر عامًا أحبك وأحترمك وأحرص كل الحرص علىٰ إسعادك، وأنت ولا غيرك يعلم عظم تضحيتي بأمومتي لأجلك، لن أقبل منك أن يكون هذا جزائي!



أصابته رصاصتها في مقتل، كانت هذه الكلمات آخر ما يتوقعه منها، فاغرورقت عيناه، وغمغم:

- أتعايرنني يا سيرين بما أبتلاني به ربي؟!

هدأت ثورتها وضمته إلىٰ صدرها، فانزلقت دموعه ساخنة بردًا أطفأ جذوة غضبها، فبكت وتحشرجت الأحرف في حلقها.

- حاشا لله أن أعاير من أحببت وصمدت لأجله أمام توسلات أمي رحمها الله، أن أعهد بنفسي لطبيبٍ متخصص ليعالج حالة عقمي، فما أنا بعاقر، ولكني كذبت علىٰ الجميع لأجلك، وتحملت سخافاتهم طيلة ١٤ عامًا، أفلا يحق لي أن تتحملني لبضعة أيام؟!

ربت علىٰ ظهرها بعد أن احتضنها بقوة وحنو شديدين:

- أنا خائفٌ عليك يا زهرتي الحبيبة، ولا أقدر علىٰ الصمت وأنا أراك في كل يومٍ تذبلين أمام عيني، يجب أن تجدي حلًا لما أنت فيه يا حبيبتي.

نشجت باكية ومستعطفة:

- سأجد حلًا، أعدك يا حبيبي سأجد حلًا، فقط كل ما أرجوه منك أن تتحملني.. تحملني فقط، وأنت أدرىٰ الناس بي، وتدرك مدىٰ قدرتي وقوتي لتجاوزها بسلام، فقط تحملني لعدة أيام أخر، عدة أيام فقط وسترىٰ حبيبتك سيرين التي تعشقك وقد عاد لها بهاؤها، زهرتك لن تذبل أبدًا طالما ترويها بحنانك

وتفهمك وسعة صدرك، أنت حبيبي وستظل دائمًا حبيبي الذي أعشقه وسأظل أعشقه ما حييت.

لحظة وصل بلا وصل، وحنان بلا سُقيا، واحتضان بلا انصهار، هدهدها كطفلة فخفت نشيجها، وتراجعت دموعها إلىٰ أن تلاقىٰ جفنيها فخبت الأضواء من حولها، إلا سؤالٌ اقتحمها مزلزلًا جدران معبد فكرها، يستعيد علىٰ مسامعها ما قالته آنفا: (أنت حبيبي وستظل دائمًا حبيبي الذي أعشقه وسأظل أعشقه ما حييت) أيمكن أن تحب غيره؟!

استيقظت متأخرة بعد أن لدغتها أشعة شمس تموز، وتسللت إلىٰ منتصف فراشها، نهضت واغتسلت، وأعدت فنجان قهوتها الصباحي، وضعته برفق فوق سطح مكتبها الأنيق ذي اللون الأبانوسي اللامع، وجلست في استرخاء تام فوق مقعدها المكسي بجلد طبيعي من النوع الفاخر غالي الثمن، تناولت قلمها المذهب بين أناملها الرقيقة، وأدنته من شفتيها، فبدت وكأنها تخطط ذهنيًا لأمرٍ ما، سبق وعقدت العزم علىٰ تنفيذه، لكنها تبحث عن أول الخيط، برهةٌ مضت قبل أن تضع قلمها فوق سطح المكتب، لتنهض وتمضي إلىٰ غرفة نومها، وتعود وقد ارتدت عباءة حريرية ذات لونٍ عاجي، وبيدها علبة سجائرها وقداحتها الذهبية، تناولت سيجارة منها ثم وضعت العلبة بجوار القلم، وجلست وأشعلت سيجارتها، ومن ثم وضعت القداحة بجوار العلبة والقلم، وارتشفت رشفةً أولىٰ من فنجان قهوتها، وأعادته إلىٰ موضعه واسترخت مرة أخرىٰ فاردةً ساقيها علىٰ استقامتهما.



تراوحت حركتها بين تدخين سيجارتها وارتشاف قهوتها حتىٰ قاربا علىٰ النفاد، فأطفأت سيجارتها، والتقطت بثبات وثقة هاتفها الجوال، واتصلت.

لم تلق جوابًا فاتصلت مرة ثانية وثالثة ورابعة دون استجابة من الطرف الآخر، استبد بها القلق عليه ونست تمامًا كل حرفٍ أعدته بعناية ودقة ليكون خاتمة علاقتها به، تلك العلاقة التي لم تكد تبدأ فأحالت حياتها جحيما، انكفأت علىٰ هاتفها تتفحص قائمة الأصدقاء بذعرٍ وهلع شديدين، تبحث عن رقم هاتف الأستاذ سامح، إلا أنّ رقم هاتف الأستاذ سيد كان الأسبق إلىٰ عينيها المتلهفتين، فضغطته، فجاءها صوته مبتهجًا

- أهلًا أهلًا، أستاذة سيرين.

- أهلًا أستاذ سيد، هل الأستاذ سعيد بخير؟

- أكيد بخير يا بنيتي، ما الذي أقلقك عليه هكذا؟

- لا.. لا شيء، فقط اتصلت به عدة مرات ولم يرد، فقلقت وظننت أنّ زوجته ربما داهمها مرض:

ضحك ضحكته الصفراء، وقال لها مطمئنًا:

- لا تقلقي يا ابنتي، سأحاول الاتصال به أو بأخيه فهو صديقي أيضًا، ومن ثم أعود لك بالخبر اليقين حتىٰ تهدأ نفسك ويزول قلقك إن شاء الله.



٢

طال انتظارهما تحت أغصان كثيفة تفرعت كأفاعي ملتوية من رحم شجرة السدر العملاقة، ومربتاح لا يظهر له في الأفق أثر، سألتها:

- ما بال هذا الفتىٰ؟! ألم تخبريه أننا سننتظره هنا، وأنّ عليه اللحاق بنا؟

- بلىٰ يا مولاتي أخبرته، وأخبرته أيضًا أن يتخفف ويحرص ألا يتبعه أحد.

- إذًا ما الذي أخّره هكذا؟!

أجابتها مي رت بنبرةٍ فرحة، فقد لمحته قادمًا يتخفىٰ بين الأشجار:

- ها قد أتىٰ يا مولاتي، أنظري ها هو قد اقترب.

رأته سيرانة، فأشاحت بوجهها إلىٰ الجهة الأخرىٰ، ثم أشارت لمي رت أن تسرع برفع الغطاء المغطىٰ بالأوراق الخضراء أسفل قدميها، ففعلت:

- صباحك سعادة يا مولاتي.

لم ترد عليه تحيته وإنما بادرت بالهبوط داخل الكوة المكشوفة حتىٰ توارىٰ داخلها كامل جسدها، حينئذ أشارت مي رت لمربتاح أن يهبط هو الآخر، فهبط وتبعته مي رت وأحكمت رد الغطاء إلىٰ وضعه الأول.

سرداب طويل تضيئه المشاعل المعلقة علىٰ جدرانه الحجرية، تتقدم القافلة سيرانة بخطىٰ سريعة، بينما همهم مربتاح سائلًا مي رت:



- إلىٰ أين يقودنا هذا السرداب؟

أجابته بصوتٍ خافت:

- إلىٰ حجرةٍ في بيت أمي علىٰ الطرف الشرقي للمدينة، هكذا كان يفعل مولاي تاران الأول، ونهج نهجه مولاي تاران الثاني، وحرصت مولاتي سيرانة أن تخلفه في أداء المهمة نظرًا لمرضه العضال.

سألها مستغربًا:

- مهمة؟ أية مهمة يا مي رت؟

ضحكت وقالت:

- متابعة أحوال العباد يا سيدي.

تنامت همهماتهما إلىٰ مسامع سيرانة، فالتفتت إليها ورمقتهما بنظرةٍ حادة، وأشارت لهما بأصبعها أن اصمتا فصمتا، وواصلا السير متتبعين وتيرة خطاها السريعة.

غرفة ضيقة بلا سقف يحجب عنها شمس تموز ولا أمطار كانون، وامرأةٌ عجوز تقتعد مقعدًا من الحجر الجيري الأبيض، ترتدي جلبابًا فضفاضا، وخصيلاتٍ من شعرها الرمادي الفاتح تنزلق من تحت طرحةٍ زرقاء اللون تغطي رأسها، وجزءًا من ظهرها ومنكبيها، ترهف السمع في قلق، إلىٰ أن غشّاها صدىٰ ثلاث طرقات خفيفة، فسارعت بسحب حصير مصنوع من ألياف أشجار القصب، وأزاحته جانبًا ومن ثم رفعت بيديها الناحلتين غطاءً خشبيًا رقيق السماكة، وتهللت

أساريرها حينما تلاقت عيناها مع عيني ابنتها مي رت، وما إن استوت مي رت منصبة بعد صعودها حتىٰ احتضنتها مي رت بلهفة وليدٍ تاق لصدر أمه بعد طول غياب.

تلاها مرتاح صاعدًا من الكوة، وأخيرًا صعدت سيرانة، فانحنت العجوز منكسةً رأسها إلىٰ الأرض غير ناظرةٍ إلىٰ الملكة، فربتت سيرانة علىٰ كتفها بحنو هامسةً في ود:

- أنت يا سفريت في منزلة أمي، وما كانت أمي لتنحني لي، فلا تنحني يا سفريت لي.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.

سارعت سفريت لتقدم لهم كوبين فارغين وأضافت لهما كوبًا ثالثًا، ودورق مُلئ بعصير طازج من العنب الأحمر، كانت قد أعدته مسبقًا تأهبًا لحضورهما المعتاد.

الشمس تتوسط كبد السماء، والسحب غادرتها مع آخر هبة ريح بعد دقائق من بزوغ الفجر، فسلكت خيوط الشمس طريقها سقف المدينة دون عوائق، لتصب جحيم حرارتها علىٰ رؤوس مرتادي السوق الكبير، أُناس اعتادوا علىٰ جحيم تموز وبرودة كانون، فلم يعودوا يأبهون ويمارسون أعمالهم بلا كلل أو ملل، ساعين وراء حاجياتهم المعيشية، ويعد هذا السوق هو السوق الأكبر والأشهر في المدينة، ويفد إليه الكثيرون من القرىٰ المجاورة ليعرضوا بضاعتهم، ويشتروا أيضًا ما يحتاجونه من بضائع الآخرين.

نداءات الباعة تصدح عالية من كل مكان وزاوية من زوايا السوق منغمةٌ بإيقاع موسيقي محببٌ للأذن، وسيرانة تتمهل في سيرها، وتتباطأ قليلًا لتناغش بائعةً تدلل لبضاعتها، وتشاكس بمرح بائعًا آخر، إلا أنها في كل الأحوال لا تشتري شيئا، فقط تنحو في أحاديثها معهم بخفة ومهارة مستطلعة أحوالهم، وآراءهم في الأمور العامة، لتقف علىٰ ما يسعدهم وما هم في حاجةٍ إليه، لتعود وتأمر معاوني مولاها تاران الثاني بتذليل كافة الصعوبات المعيشية التي أفضىٰ الناس بها إليها، متبعةً في ذلك خطىٰ أبيها تاران الأول، وكذلك خطىٰ زوجها تاران الثاني قبل أن يقعده المرض عن القيام بهذه المهمة، بينما مربتاح ومي رت يقتفيان أثرها خطوة بخطوة، إلىٰ أن دخلت حانوتًا خشبيًا لبائعٍ مسن، فلحقا بها وانضما إليها داخله.

كان المسن ضريرًا، لكنه تبين ماهيتها لحظة أن ألقت عليه التحية، فدعاها للجلوس مرحبًا:

- أهلًا يا بنيتي.
- كيف حالك يا أبي؟ اشتقت لحديثك الطيب، وعاهدت نفسي أن أجالسك وأنصت إلىٰ حكاياتك الجميلة كلما وطئت قدميّ أرض السوق.
- وأنا أيضًا أأنس بطيب مجلسك، ويسعدني تلهفك لمعرفة تاريخ نشأة مملكتنا القوية.

- إذًا احك لي يا أبي عن ملابسات لقائك بمولانا مؤسس مملكتنا تاران الأول، فقد توقفنا في حديثنا الفائت قبيل لقائك به أثناء معركتكم الأولىٰ مع أعدائنا السدرانيين.

- نعم.. نعم، لقد توقفت عند هذه اللحظة في حديثي معك، واستأذنتِ حينها متعللة أنّ الوقت داهمك، وأنّ عيالك في انتظارك لتعودي لهم بما جلبته من السوق، كما وعدتِ بعودتك لنكمل الحديث، وها أنت قد عدتِ ولم تحنثي وعدك.

٣

كانت تنتظر مهاتفته تتقلب علىٰ جمراتّ من قلق، تتلاعب بها الهواجس ككرةٍ تركلها الأرجل بلا هدف، الساعة التي انقضت منذ أن هاتفته مضت مضي سلحفاةٍ تتردد في خطاها بين ذهاب وإياب، لا تهدأ حركتها، إن جلست قامت، وإن قامت مشت، وإن مشت جلست، السيجارة تشعلها من عقب سيجارةٍ سبقتها.. رن فجأةً هاتفها فالتقطته متلهفة:

- طمني أرجوك، هل الأستاذ بخير؟ قل لي ماذا حدث؟ أرجوك لا تخفِ عني شيئًا.

- اهدئي يا ابنتي، الأستاذ بخير الحمد لله، لكن...

قاطعته في ذعر:

- ولكن ماذا؟

بنبرةٍ غلّفتها سحابة حزن أجابها:

- زوجته يا سيدتي...

- زوجته! ما بها؟ ماذا أصابها؟ أرجو أن تكون بخير.

- زوجته في غرفة العناية المركزة، أصابتها نوبة قلبية وحالتها غير مطمئنة، فهذه ثالث مرة تداهمها نوبة قلبية.

- والأستاذ سعيد أين هو الآن؟

- يلازمها في المستشفىٰ، يقضي ليله باكيًا وجالسًا في استراحة الزوار، هذا كل ما أخبرني به أخوه سامي.

- هل سألته أي مستشفىٰ؟

ابتسم ابتسامته الصفراء المعهودة، واستطرد:

- طبعًا سألته يا ابنتي، مستشفىٰ الحسين التعليمي بمنطقة الأزهر.

صمت للحظة ثم أردف مهمهًا بصوتٍ مسموع:

- أنا الآن أتهيأ للذهاب إليه، إذ ينبغي علينا مؤانسته والتخفيف عنه.

لم تتردد للحظة، فبمجرد أن سكت قالت

- سأذهب معك يا أستاذ سيد، أين يمكنك انتظاري لأقلك في طريقي؟

ردهةٌ طويلة قطعاها مشيًا علىٰ الأقدام، بعد أن ترجلا من سيارتها، والتي تركتها في المرأب المقابل للمستشفىٰ، وعبرا نهر الطريق.

كان سعيد جالسًا واضعًا رأسه بين كفيه حينما اقتربا منه، ربت سيد علىٰ كتفه بحنو، بينما جلست سيرين علىٰ المقعد المجاور لمقعده، عاجزةً أن تنبس ببنت شفة، هالها بؤس منظره وشحوب وجهه، ولحيته الكثة بلا تهذيب، جاهدت لتنفرج شفتاها عن:

- إن شاء الله تشفىٰ وتعود أفضل مما كانت.

التفت إليها نصف التفاتة، وغمغم داعيًا وقد اختلطت حروفه بدموعه:

- يا رب.

ناولته منديلًا أخرجته من حقيبة يدها، وهمست:

- كفكف دموعك يا أستاذ، وأدعو لها بالشفاء.

بينما الأستاذ سيد لا يزال واقفًا يخفي ابتسامة منتصر، وعيناه لا تبارحهما، وأذناه لاقط صوتي لأقل الموجات الصوتية ترددا.. لحظات وتفاجأ بأحد العاملين يبلغه أنّ وقت الزيارة انتهي، وأنّ عليهما المغادرة فورًا، فمال بفمه بالقرب من أذن سعيد اليمنىٰ، وهمس له ببعض الكلمات، ثم ربت علىٰ كتفه، وأشار لسيرين أن حان وقت الرحيل، وقبل أن تنهض واقفة همست هي أيضًا في أذنه اليسرىٰ قائلة

- أرجوك يا أستاذ سعيد إن احتجت لشيء.. أي شيء لا تتردد في الاتصال بي فورًا.. فأنت في منزلة أبي

- أشكرك يا سيدتي، بارك الله فيكِ ولكِ.

في طريقهما للخارج طلبت من الأستاذ سيد أن يتوجها لمكتب الاستقبال، فسألها:

- لماذا يا ابنتي؟
- لأضع مبلغًا مناسبًا تحت الحساب.
ضحك حتىٰ بدت نواجذه وقال:
- أي حساب يا سيرين؟ هذه مستشفىٰ حكومية مجانية، لا يتكبد المريض ثمنًا نظير علاجه، الحكومة تتكفل بكل شيء، بارك الله فيكِ يا ابنتي وأوسع لك في رزقك، هيا.. هيا لنمضي إلىٰ الخارج.
في طريقهما للمرآب استوقفها متسائلًا:
- هل سبق لك زيارة خان الخليلي؟
- لا للأسف، أسمع عن الاسم كثيرًا وأظن أنه سوق لبيع الأنتيكات والتحف القديمة، والمشغولات الذهبية.
ابتسمت كمن تذكر شيئا ما أضحكه واستطردت:
- كما أنه عنوان رواية للروائي العالمي نجيب محفوظ.
- تمام، هو كل ما قلتِ، فما رأيك أن نتجول فيه قليلًا، هو قريب من هنا، سنقطع المسافة سيرًا علىٰ أقدامنا، وأنا علىٰ ثقة أنك ستتفاجئين بما يدهشك، ويثير شهيتك الإبداعية، فما من مبدع دخله فارغًا إلا وخرج وفي مخيلته قصةٌ أو قصيدة، ولم يخلُ مرجعٌ للآثار الإسلامية أو كتابًا للتاريخ من نبذة عن هذا الخان، وقد ذكره عرضًا أحد المؤرخين المصريين المعاصرين ضمن حديثه عن حي الجمالية في كتابه الرائع "عرق الحارة المصرية"

وحاز عنه تأليفه له جائزة الدولة التقديرية منذ عامين أو ثلاثة علىٰ ما أذكر.

- ما اسمه؟

- الأستاذ سيد جعيتم.. هذا اسمه.

- لا أظن أنني التقيت به من قبل.

- لا بأس، سأحاول دعوته لتشريفنا في إحدىٰ أمسيات مصر الجديدة الثقافية.

صمت برهة ثم واصل داعيًا إياه للتجول في الخان.

٤

كانت سيرانة منصتةً باهتمام شديد لكل كلمة يتفوه بها العجوز، بينما كان مربتاح جالسًا في هدوء وصمت يتابع السارد بأذنٍ، وأذنه الأخرىٰ موزعةٌ بين تعقيبات سيرانة حينًا، وأصوات الباعة القادمة عبر الفسحة الضيقة لباب الحانوت، ومي رت منشغلة تتفحص عينيها البضاعة المتراصة بعنايةٍ فائقة وفي تناسق تام فوق طاولة خشبية ممتدة من واجهة الحانوت الخارجية إلىٰ ما يقارب منتصفه من الداخل حيث هم جالسون..

- احتدمت المعركة وبدا لنا نحن الجنود أنّ النصر بات وشيكًا، وقاب قوسين أو أدنىٰ، حين باغتنا ثلة من هؤلاء الحثالة اللصوص بهجوم مفاجئ علىٰ ميمنة الجيش مستهدفًا بضراوة عجلاتنا الحربية بسهامهم المشتعلة، فاندفعنا مهرولين صوب

العجلات لحمايتها وإنقاذ قوادها من خطر الحريق الذي بدأ يلتهمها، وكنت أنا أول الواصلين إليها مستهدفًا أكثر المركبات اشتعالا، وما إن دنوت منها سارعت بخلع ما أرتديه وألقاه فوق الجزء العلوي من جسد المحارب قائد المركبة ورأسه، ثم احتضنته بكل ما أوتيت من قوةٍ، وهويت به إلىٰ الأرض

قاطعته متلهفة:

- هل مات يا أبي؟

- اصبري يا بنيتي.. ها أنا قادمٌ إليك.

صمت للحظة يستعيد فيها مشهدًا مضىٰ عليه أكثر من ثلاثين عاما، وتناول لفافة جافة مصنوعة من أوراق نباتية، تحسس بيده موضعها، ثم وضعها في فمه يلوكها بتأنٍ، واستطرد:

- لا يا بنيتي لم يمت.. لقد أنقذته، وفقدت بصري إثر اصطدام مؤخرة رأسي بحجر أثناء ارتطامنا..

صمت برهة عاود خلالها مضغ اللفافة:

- كل ذلك لا يهم يا بنيتي.

- ما المهم إذًا يا أبي وقد فقدت بصرك؟!

- بصري فداء مولاي، ولو تطلب الأمر فقدان روحي لما ترددت لحظة.

اخترقت الجملة الأخيرة آذانهم جميعًا فانتبهوا منصتين

- مولاك! كيف يا أبي.. كيف؟

- علمت فيما بعد انتهاء المعركة وانتصارنا المشهود فيها أنّ الرجل الذي أنقذته كان مولاي تاران الأول، إذ أمر باستدعائي، فاصطحبني قائدي إليه، وما إن التقيته بادرني شاكرًا صنيعي بتقبيل رأسي، وقال لي بنبرةٍ صادقة حنونة "تمنىٰ ما شئت أيها الشاب الشجاع" فتمنيت حانوتًا في السوق، فوهبني حانوتي هذا مكافأة لي لإنقاذه، كما أنه أمدني بكل ما يحتاجه الحانوت من بضاعة أتاجر فيها، وأيضًا واظب علىٰ زيارتي كلما وطأت قدماه الطاهرتين أرض السوق، وكان كعادته متنكرًا لئلا يعرفه أحد، وكان رجائه الوحيد لي ألا أخبر أحدًا عنه..

- تاران الأول؟!

- نعم يا بنيتي.. مولاي العظيم طيب القلب نقي الروح تاران الأول.

الآن والآن فقط عرفت سيرانة سر الجرح العريض الذي لمحته في طفولتها متوسدًا كتف أبيها وجزءًا من ظهره، ولطالما سألته عنه فكان يجيبها أنه أثرٌ من آثار حروبه للسدرانيين، وأنه وشم سعادة وفخرٍ له، وينبغي لها أن تفخر أنّ أباها كان محاربًا شجاعًا، وأدركت أيضًا لمَ أوصاها قبل مغادرته لعالم الإله سيت أن تحرص أثناء تجوالها في السوق الكبير-برفقة أخيها وزوجها الحبيب تاران الثاني- علىٰ زيارة هذا الحانوت، ولمَ كان يصطحبها معه وهي صبية لزيارة هذا الحانوت وصاحبه الضرير، حتىٰ ظنت وقتئذ أنه ربما يكون أخًا غير شرعي



لأبيها تاران الأول من عظم حفاوته بهذا العجوز، وحرصه الدائم علىٰ زيارته.

أشارت لمي رت ومربتاح أن يضعا كل ما ابتاعاه من بضاعة علىٰ طاولة العرض، وأن يحرصا علىٰ تصفيفها بعناية، ثم نهضت وقبلت رأس العجوز مودعة وواعدةً إياه بزيارةٍ قريبة كما اعتادت، وانصرف ثلاثتهم خارجين تباعًا من الفسحة الضيقة لباب الحانوت، ليكملوا تجوالهم في السوق الكبير، بينما الشمس تشق طريقها المعتاد نحو الغرب، يرافقها خفوتٌ ملحوظ في نداءات الباعة، وتناقص تدريجي بوتيرةٍ متزايدة لأعداد المتجولين والمشترين، حتىٰ أنّ بعض أصحاب المحال شرعوا بلملمة بضاعتهم المعروضة تمهيدًا لغلق أبوابها ومن ثم المغادرة، والعودة مع إشراقة شمس يومٍ آخر، أما الباعة المتجولون الوافدين من القرىٰ المجاورة، فها هم قد عبأوا ما تبقىٰ من بضاعتهم، وما ابتاعوه من بضاعة هم وأسرهم وأهل قراهم في احتياج إليها داخل أكياسٍ كبيرة، وحملوها علىٰ ظهورهم مغادرين السوق في جماعاتٍ متفرقة، كلٌ يعرف وجهته والطريق المؤدي إلىٰ قريته، يحدوهم الأمل في العودة مجددًا بعد مرور شهرٍ قمري كما اعتادوا.

كان المنظر مهيبًا والسوق يكاد يخلو من المارة والمتجولين، والظلال تمتد باسطةً جلالها علىٰ الأرض الترابية، كما مفرحًا أيضًا لسيرانة، وهي تراقب عيونهم السعيدة وضحكاتهم المرحة، ما أثلج صدرها واشاع البهجة فطفت علىٰ ملامحها الجميلة، فزادتها جمالًا فوق

جمال، وسحرًا فوق سحر، ومرتاح يختلس النظرة تلو النظرة مسحورًا بألقها، مندهشًا من جرأتها في مناغشة المارة من رجالٍ ونساء وأطفال، مبهورًا بثقتها ورقة خطواتها، رآها فراشةً تغرد بجناحين من نور، وتحط برشاقة علىٰ كل زهرة، فتعطيها وتأخذ منها إلا زهرته فقلما تلتفت إليه، وإن التفتت لا تطيل المكوث في عينيه إلا لمما، وميي رت تتبعهما عن كثب وعيناه ترصد كل خلجة من خلجات مرتاح وتدوّنها في ذاكرتها، لتعيد تفريغها ليلًا حين خلوة مع مولاتها، هكذا أمرتها سيرانة، فقالت سمعًا وطاعة، وما كان لها أن تقول غير ذلك، وما كان لها إلا أن تفعل ما أمرتها به مولاتها طائعةً أو مكرهة، ففعلته عن طاعة وحب أيضًا، ولم لا تحبها وهي مولاتها وهي صديقتها وهي نديمتها، وهي رفيقة صباها وشبابها رغم العشر سنوات التي تفرق بين عمريهما.

٥

في طريقهما هابطين الطريق المنحدر، وكلٌ منهما يسأل نفسه مستغربًا:
"ما الذي يحدث؟! كيف وافقته علىٰ مقترحه بزيارةٍ لخان الخليلي؟ لا أدري ما الذي دفعني؟ بل هي قوةٌ خفية أمرتني أن أقبلي فقبلت دون وعي"
"ماذا دهاني كي أدعوها للتجول في أروقة خان الخليلي؟ الوقت لم يكن مناسبًا البتة لذلك العرض! أمن بكاءٍ ونشيج إلىٰ بهجةٍ ونزهة؟

أمسك ضربٌ من خبلٍ داهمك فجأة؟ أم ذلك الهاتف بداخلك استولىٰ وأحكم سيطرته علىٰ جوارحك، فدفعك لتقول ما قلته"

خطواتهما تقترب من الحاجز الحديدي الممتد بعرض مسجد الإمام الحسين رضي الله عنه وأرضاه سبط رسولنا الكريم، فاصلًا أبواب المسجد والحديقة الأمامية وبين رصيف المارة ونهر الشارع.

توقف برهة موليًا وجهه نحو الباب الرئيس للمسجد، ورفع يديه قليلًا إلىٰ أعلىٰ حتىٰ استويا متوازيين في مستوىٰ كتفيه، وهمهم بصوتٍ خفيض يقرأ فاتحة الكتاب، ففعلت سيرين مثل ما فعل، ثم أكملا سيرهما في طريقهما للخان.

علىٰ ناصيته الخارجية والقريبة من شارع الموسكي، استوقفها الأستاذ سيد مبتهجًا وقال

- هذا هو الخان يا سيدتي، ويُعد من أقدم أسواق مصر المحروسة والشرق الأوسط وفق ما صنفته الهيئة المصرية العامة للاستعلامات، ويقول المؤرخ العربي الأشهر "المقريزي" عنه أنّ من بناه هو الأمير جهاركس الخليلي أحد أمراء المماليك، ويرجع نسبه لمدينة الخليل في فلسطين، وذلك عام ١٤٠٠ ميلادية في عهد السلطان برقوق، وقال عنه أيضًا أنه بعد مقتله في مدينة دمشق أزال السلطان قنصوه الغوري الخان، وأقام مكانه وكالات ودكاكين للتجار، فاكتسب المكان طابعه

التاريخي المتأثر بالعمارة الإسلامية حتىٰ وقتنا هذا كما سترين بنفسك.

تجولا بسرعة بين عددٍ من المحال دون أن يدخلا أحدها، وكأنّ شيئًا ما يحثه علىٰ المضي قدمًا، ولا يتمهل في خطاه إلا عندما تستوقفه قدماه.

كان ذلك الإحساس الطاغي يقلقه، ويراكم المزيد من الأسئلة التي لا يجد لها جوابًا، اللهم إلا هاتفًا خفيًا يأمره أن أطع، فأطاع، سيرين تتبعه شاردةً في مخيلتها صورًا من تاريخٍ قديم، وأسئلةً حيرىٰ تتلمس لها جوابًا فلا تجد لذلك سبيلا!

وقف متأملًا واجهة محل للتحف القديمة، برهةً والتفت إليها قائلًا

- ما رأيك في هذه التحف الجميلة الممزوجة بعبق التاريخ الموغل في القدم؟

- جميلة يا أستاذ جميلة، وكأني أراها للمرة الأولىٰ.. أهي حقيقة أم صناعة حديثة أتقن صناعها صياغتها؟

- بعضها قديم وبعضها مقلدٌ بإتقان، فهم صناعٌ مهرة مشهودٌ لهم بدقة الصنعة، ما رأيك أن نلقي نظرة من الداخل؟

- حسنًا لا بأس، فلندخل ونرىٰ.

أعجبها الكثير من المصوغات الذهبية والقطع الحجرية التي عرضها عليهما البائع، إلا أنها لم تكن في حاجة إلىٰ أيٍ من المصوغات الذهبية، فما زينت به أصابعها من خواتم ماسية وذهبية من العيار شديد النقاء، وما تقلدته من سلاسل ذهبية

مرصعةٌ بالزبرجد الحر وقطعة كبيرة من العقيق الأحمر، كان كفيلًا أن يسيل له لعاب البائع، ويدرك بفطنته وغريزته التجارية أنّ كل ما عرضه عليها من مصوغاتٍ لن تشتري منه شيئا وإن أعجبها جماله وبراعة صنعته، لذا رجاهما أن ينتظراه لأقل من دقيقة، ومن ثم اختفىٰ خلف بابٍ داخلي وما لبث أن عاد حاملًا بين يديه علبةً من الجلد السميك مكسوة بطبقةٍ رقيقة من القطيفة الزرقاء، ووضعها أمامها وفتحها.

لم يستغرقا وقتًا طويلًا في فحص التحف الرقيقة التي حوتها العلبة الزرقاء بين أركانها الأربعة، إذ امتدت يداهما في نفس اللحظة ليلتقطا سوارًا ذهبيًا ثعباني الشكل رأسه عبارة عن حجر عقيق أحمر

سأله سيد:

- بكم تبيع هذا السوار؟

تهللت أسارير البائع بعدما تيقن أنه نال مبتغاه وتمكن من سحر فريسته، فتوجه بعينيه نحو سيرين

- هذا السوار فرعوني أصيل وليس تقليدًا يا سيدتي...

قاطعه سيد وقد أدرك أنّ البائع سيبالغ في ثمن السوار:

- سألتك بكم تبيعه، ولم أسألك عن تاريخه، هذا السوار ليس فرعونيًا قطعًا، فالفراعنة لم يستخدموا العقيق الأحمر في صناعة حليّهم يا أستاذ، والآن قل لي بكم تبيعه؟

ارتبك الرجل قليلًا فهو لم يكن على يقينٍ مما قاله عن السوار، واللهجة الحادة الواثقة التي خاطبه بها سيد زادت من ارتباكه، خاصةً مع نظرته النافذة وضخامة جسده المهيب، فقال متلعثمًا:

- ثلاثة آلاف جنيه فقط.

وبنفس اللهجة الحادة القاطعة أجابه سيد، بينما التزمت سيرين صمت القبور.

- ألفان فقط، ما قولك أتبيع أم نذهب؟

وافق البائع فبادر سيد بإخراج بطاقته المالية، إلا أنّ سيرين كانت الأسبق وناولت البائع بطاقتها المالية.

في طريق عودتهما سألته مستفسرة:

- أهو حقًا غير فرعوني يا أستاذ سيد.

ضحك قائلًا في فخر:

- بل هو أقدم عمرًا يا سيدتي من الفراعنة أو ربما في نفس عصر الأسرة الفرعونية الأولىٰ.

- كيف ذلك؟ أهناك في تاريخنا المصري حضارةٌ سبقت الحضارة الفرعونية؟

- سؤالك جيد يا ابنتي، لم يذكر التاريخ صراحةً وبإسهاب عن حضارة مصرية سبقت الحضارة الفرعونية، لكن المؤرخ الإغريقي هيرودت ألمح في بعض سطوره عن حضارة مصرية قديمة واكبت نشأة الأسرة الفرعونية الأولىٰ في جنوب الوادي، إلا أنّ عمرها كان قصيرًا جدًا إذ لم يتناوب ملكها إلا أسرة

واحدة لجيلين متتاليين، وانفكت عرىٰ مملكتهم بموت ملكتهم سيرانة ابنة مؤسس المملكة وكان يدعىٰ تاران الأول، خلفه ابنه تاران الثاني، ومن ثم بعد وفاته اعتلت العرش زوجته التي هي في نفس الوقت أخته أيضًا، وكانوا يعبدون الذئب الأبيض ذا العيون الزرقاء، بينما كان من في شمال مملكتهم يعبدون آمون كما تعرفين، غير ذلك لا ذكر لهم في كتاب التاريخ، حتىٰ أنه لم يعثر لهم علىٰ آثار تدل عليهم، أو ربما عُثر علىٰ آثارٍ لهم ولكن نسبها المكتشفون وعلماء الآثار إلىٰ عصر الأسرة الفرعونية الأولىٰ لشدة التشابه بينهم.

٦

لطالما سألت سيرانة نفسها مستغربةً ذلك الشبه الكبير بينها ومي رت، والذي يراه كل من رآهما معًا أثناء تجوالهما في السوق من باعة أو بعض ممن استوقفتهم لسؤالهم عن أحوال معيشتهم، كانوا غالبًا ما يسألونها أين أختك، إن هي تخلفت قليلًا عنها، أو يسألونها سؤالًا يحمل إجابته بين طيات حروفه "هذه بالتأكيد أختك، الشبه بينكما كبير" حتىٰ أنها تناهي إلىٰ مسامعها تهامس بعض جواريها عن التشابه اللافت بينهما، معظم الناس إلا هي، ترىٰ نفسها بيضاء وبشرتها مشوبةٌ بحمرةٍ خفيفة، بينما مي رت خمرية تبتعد خطواتٍ قليلة عن السمار، ومي رت ذات شعرٍ فحمي اللون ومجعدا، بينما شعرها يتراوح لونه بين البني الفاتح والداكن، وعيناها واسعتان عميقتان رماديتان كعيني

نمس نظراتها ثابتة لا تشي بما خلفها، وعينا مي رت ضيقتان مسحوبتان ساحرتان جذابتان بشقاوةٍ فطرية تفيض أنوثة كلبؤة، تُشعر من تنظر إليه أنها في حالة شبقٍ مستدام.. أين التشابه إذًا؟ حارت كثيرًا ولم تجد سببا، حتىٰ مشيتها علىٰ النقيض تمامًا من خطىٰ مي رت، التي تتحرك كأفعىٰ تتلوىٰ، بينما هي تمشي مستقيمةً كالرجال، خطواتها منتظمة كما جنود جيش مملكتها.

عند وصولهم للسلالم الحجرية المؤدية إلىٰ الكوة المجاورة لشجرة السدر العملاقة تباطأت خطىٰ مربتاح وصار خلفهما بخطوتين لما توقف برهة وانتزع شعلة من مكمنها علىٰ الجدار الجانبي للسرداب، فانتظراه عند السلمة الأولىٰ وأمرته سيرانة أن يصعد أولًا ليرفع غطاء الكوة، وليضيء لهما السلالم فيصعدان خلفه، ففعل ما أمرته به، وما إن استقاما خارجها، انحنىٰ ووضع غطاء الكوة وثبته جيدًا، وأحكم إخفاءه بما خصف عليه من أوراق الشجرة، وحين انتصب واقفًا كان الظلام قد ابتلع سيرانة ومي رت، فلم يلمح لهما شبحًا ولم يسمع صدىٰ دبيب خطىٰ، فانصرف حانقًا محبطًا موليًا وجهه شطر منزله، وقد خاب مسعاه في ارتقاء السلالم خلفها، والتمتع بالنظر في عينيها مودعا.

مع أول خيط للفجر استدعت مي رت علىٰ عجل، وأمرتها أن تطلب من كبير حماة القصر أن يذهب إلىٰ قواد الأفرع الثلاثة للجيش الملكي وكبير كهنة المعبد ويستدعيهم بناءً علىٰ أوامر مولاه تاران الثاني، وكلفتها أن تذهب إلىٰ حيث يقيم مربتاح، وتأتي به بعدما يتناول

إفطاره، ريثما تبلغ سيرانة مولاها بما تناهي إلىٰ سمعها أثناء تجوالها في السوق الكبير.

قاعةٌ كبيرة ذات جدار يحدها من الجهة الخلفية، مكونٌ من أحجار جرانيتية مصقولة بعناية ومتراصة بدقة، بينما جانبيها الشرقي والغربي عبارة عن أعمدة أسطوانية من الحجر الجيري المائل للصفرة، يقارب ارتفاعها الثمانية أذرع أو يزيد، وواجهتها الأمامية عبارة عن جدار جرانيتي أقل ارتفاعا من جدارها الخلفي بذراعين أو أكثر قليلا، يتوسطه بابٌ مصنوعٌ من خشب البلوط الثقيل، وعلىٰ جانبي الباب من الخارج ينتصب في شمم تمثالان للإله سيت بعيونهما الزرقاء.

جلس جميعهم يترقبون وفادة الملكة سيرانة، وما إن نُفخ في البوق إعلانًا بوصول سيرانة سجد الجميع تحية إكبارٍ لها واحترام، عدا منت الذي حيّاها بانحناءةٍ خفيفة، وانتظر حتىٰ استوت علىٰ العرش، فجلس هو الآخر علىٰ مقعده المجاور لكرسي العرش الشاغر، والذي خُصص للملكة، والتي تبوأت مؤقتًا إدارة شئون المملكة ريثما يشفىٰ مليكها وزوجها الحبيب.

نادتهم بأسمائهم بدءًا بقائد فرع العجلات تلاه قائد الفرع الثاني ثم الثالث واختتمت بمربتاح، فنهضوا من سجودهم واستووا جالسين علىٰ مقاعدهم المتراصة أمامها وعلىٰ بعدٍ يناهز ثلاثة أذرع أو أربعة عن مقعد منت، ومسافة أربعة أو خمسة أذرع عن كرسي العرش حيث تجلس سيرانة

بصوتٍ جهوري لا أنوثة فيه، وفيه ثبات النبرة وقوة الإلقاء يتصارعان:
- قادة جيشنا الأبطال، كبير كهنة معبدنا.. دعوتكم اليوم لاطلاعكم علىٰ آخر ما تناهىٰ لسمعي من أخبارٍ أقلقتني، وكما عاهدكم مولاي وزوجي الحبيب ألا يتخذ قرارًا يخص أمن مملكتنا وشعبنا دون استشارتكم والاستئناس برأيكم ومناقشة مقترحاتكم، أنا أيضًا ماضيةٌ علىٰ عهده وعهد أبي تاران الأول مؤسس مملكتنا العظيمة.
قال قائد الجيش بثقة وثبات:
- لكِ الأمر وعلينا الطاعة يا مولاتي.
- انصتوا جيدًا لما سأخبركم به، وتشاوروا ولننظر ما أنتم فاعلون.
- كلنا آذانٌ صاغية يا مولاتي.
- اشتكىٰ بعض التجار الوافدين إلىٰ السوق الكبير من هجمات متفرقة ومتكررة من شراذم ضالة من السدرانيين.
- جيشك في جهوزية تامة يا مولاتي، فلتأمري لنذهب ونجتثهم عن بكرة أبيهم، فلا نبقي شيخًا ولا طفلاً ولا امرأة، فلا تقوم لهم بعد اليوم قائمة.
- هلا أذنتِ لي مولاتي بالكلام؟
- أذنت لك يا مربتاح فهات ما عندك.
- مولاتي المبجلة، هذه هجماتٌ متفرقة، لا يفعلها جيشٌ منظم، فالجيوش تهاجم لتحتل وتهلك الحرث والنسل،

أمـا هـؤلاء المغيـرون فمـا هـم إلا لصـوص، يبـاغتون ويغنمون ويرحلون.

استحسن كبير الكهنة حديثه، وأومأ برأسه مؤيدا، وكانت سيرانة فطنة ولماحة لها عيني نمس، وصبر ذئب

- إذًا لأستمع الآن إلىٰ آرائكم قواد جيشي الأكابر.

- الأمر أمرك مولاتي، وما علينا إلا السمع والطاعة.

وقال آخر:

- ما قاله مربتاح حالفه التوفيق إلىٰ حدٍ كبير، بل وأوافقه علىٰ ما تفضل به، وأحييه مثنيًا علىٰ رجاحة عقله، وبصيرته النافذة رغم حداثة سنه، وقلة خبرته العسكرية.

- حسنًا.. فلتضعوا خطتكم ارتكازًا علىٰ ما أفاض فيه مربتاح، ولتأتوني بها قبيل مغيب شمس نهار الغد.

٧

أول ما فعلته حين استيقظت صباحًا أن هاتفت الأستاذ سعيد لتطمئن علىٰ حالة زوجته المريضة، فشكرها علىٰ مبادرتها وتكرمها بالزيارة والسؤال عنها، وأخبرها ودموعه تغالبه أنّ حالتها غير مستقرة، هكذا أخبره الطبيب المعالج.

ما إن أنهت المكالمة بادرت بالاتصال بمدير مستشفىٰ دار الفؤاد بحي مدينة نصر:

- صباح الخير دكتور جمال

- أهلًا أهلًا بالصديقة العزيزة زوجة صديقي ورفيق طفولتي.
- أهلًا بك يا دكتور.. لن أعاتبك لتخلفك عن حفلة توقيع ديواني الأخير، فأنا أعلم كم أنت مشغول، ولكن لي رجاء.
- لك الأمر وعليّ السمع والطاعة يا سيرين.
- سيدةٌ مسنة جاري علاجها في قسم الرعاية المركزة بمستشفىٰ الحسين الحكومي، إثر نوبة قلبية ألمت بها، ويبدو لي أنّ حالتها المرضية غير مستقرة، هذه السيدة تهمني لذا أرجو وضعها تحت إشرافك الخاص في مستشفاك، وأنا سأتكفل بكافة تكاليف نقلها وعلاجها حتىٰ تشفىٰ بإذن الله.
- رغباتك أوامر يا عزيزتي، ولكن...
قاطعته متعجلة:
- ولكن ماذا يا دكتور جمال؟ ألا يتوفر لديك مكانًا لها؟
ضحك بود:
- لالا يا سيرين، ليست المعضلة في المكان الشاغر...
قاطعته مرة أخرىٰ:
- في ماذا إذًا؟ أخبرني
- ينبغي أن توافق السيدة بنفسها كتابيًا أو زوجها علىٰ نقلها من المستشفىٰ الذي تعالج فيه إلىٰ مستشفىٰ آخر، وإلا فمن رابع المستحيلات أن يسمحوا لها بالخروج وإيقاف العلاج، أو يوافقوا علىٰ نقلها لمستشفىٰ آخر.
سكتت برهة وما لبث أن أجابته:

- حسنًا يا دكتور، ابدأ الإجراءات اللازمة لنقلها، وأنا سأتولىٰ مهمة الحصول علىٰ موافقة زوجها.

أنهت المكالمة وأعادت الاتصال بسعيد مرة أخرىٰ

- أرجوك يا أستاذ سعيد أنصت لما أقوله جيدًا وبادر بتنفيذه دون تأخير.. قدم طلبًا لإدارة المستشفىٰ برغبتك في نقلها إلىٰ مستشفىٰ خاص..

قاطعها مندهشًا:

- مستشفىٰ آخر! أي مستشفىٰ ولمَ؟

- قلت لك راجية ألا تناقشني، دقائق وستكون سيارة إسعاف مجهزة بكل الإمكانيات الطبية اللازمة لنقل زوجتك، فلا تنفق الوقت فيما لا فائدة منه.. مستشفىٰ دار الفؤاد هو الأفضل طبيًا لمعالجة مرضىٰ القلب.

أصرّ سعيد علىٰ الجلوس -مرافقًا لزوجته الممددة علىٰ السريرٍ المعدني ذا العجلات- في الخلفية المغلقة لسيارة الإسعاف، والمخصصة للمرضىٰ والمصابين، محتضنًا بكفيه كف يدها الأيمن في حنوٍ وعطف، بينما يدها اليسرىٰ ممددةً ومحاذية لجسدها النحيل المنهك، وأنبوبٌ بلاستيكيٌ رفيع يصل بين وريدها والقارورة البلاستيكية المعلقة علىٰ حاملٍ معدني مثبتًا أعلىٰ رأسها، يمدها ببعض المحاليل الطبية، وكمامة تنفسٍ تغطي أنفها وفمها، ومتصلة بأسطوانة معدنية صغيرة، تمدها بما تحتاجه من هواء عبر أنبوب جلدي.

عيناه المغرورقتان بالدموع تحنو عليها تارة، وتتطلع إلىٰ الطريق عبر نافذة السيارة تارةً أخرىٰ، بينما ذهنه غارقٌ في محيط تساؤلات لا نهاية له ولا قاع تتكئ عليه أفكاره.

لم يشعر بطول الطريق -رغم طوله البين، فالمسافة بين مستشفىٰ الحسين، ومستشفىٰ دار الفؤاد تتراوح بين ١٣، ١٥ كيلو متر- فقد كان طريقًا مستقيمًا مباشرًا وهو الطريق الأشهر في مصر، إذ يربط بين جنوب القاهرة وشرقها، يبدأ عند حي الملك الصالح وينتهي عند مطار القاهرة الدولي، وأطلقت عليه الحكومة المصرية في ستينات القرن الماضي اسم أحد ضباطها الأحرار (صلاح سالم) تيمنًا بثورة يوليو عام ١٩٥٢، والتي خلعت الملك فاروق الأول، ونفته خارج البلاد، ومن ثم حوّلت النظام من الملكية الدستورية إلىٰ الجمهورية الاشتراكية.

مبنىٰ فخم متوسط المساحة يتوسط حديقة كبيرة، واجهته وبابه الرئيسي يطلان مباشرة علىٰ الطريق الرئيسي، وبابه الجانبي المخصص للحالات الطارئة يطل علىٰ شارع يوسف عباس المتعامد علىٰ طريق صلاح سالم، والمبنىٰ محاط من جميع أركانه بسورٍ معدني مكونٌ من أسياخ معدنية رفيعة، وما إن توقفت السيارة أمام البوابة الرئيسة حيث ينتظرها طاقم طبي كامل من أطباء وممرضات، باشروا بنقلها بحرص وعناية إلىٰ قسم الإنعاش، وما إن تم تسكينها بادر الطبيب المكلف بصفة خاصة الإشراف علىٰ حالتها، بادر بمهاتفة دكتور جمال مدير المستشفىٰ ليبلغه أنّ كل شيء تم علىٰ ما يرام، وأنه

جـار الآن إجـراء الفحـوصـات الطبيـة اللازمـة، فبـادر جمـال مـن فـوره بمهاتفة الأستاذة سيرين، وطمأنها أنّ السيدة تـم نقلها وتسكينها وأنّ كل شيء تم ويتم تحت إشرافه الشخصي.

٨

اثنتا عشر قرية تشكل الحاجز الحدودي لجنـوب المملكـة، يتوسـطهم النهر العظيم، ويحده جنوبًا الشلال الأول، ومجراه المائي المنبسط بانحدارةٍ خفيفة شمالا.

كانت الخطة الموضوعة تقضي بإرسال اثنتي عشرة مجموعة من رماة الأسـهم، كـل مجموعـة مكونـة مـن تسـعة رمـاة، تـدخل القـرىٰ لـيلًا، وتكمن علىٰ تخومها الجنوبية تحت جنح الظلام، يقودهم قائد ميمنة الجيش الملكي.

حينها أوعز كبير الكهنة منت لسيرانة أنّ الوقت قد حان لاختبار كفاءة مربتاح ومدىٰ تأهله للنبوءة، وأنها يجب أن تكلفه بمرافقة مجموعات الرماة مساعدًا لقائدهم.

استحسنت سيرانة اقتراح الكاهن منت، فأمرت باستدعائه في حضرة منت، واستدعت قائد الميمنة أيضًا، فمثلا بعد دقائق معدودة وانتظرا في غرفةٍ تجاور غرفة خلوتها مع الكاهن حتىٰ تأذن لهما بالدخول، فأذنت لهما.

- خطة محكمة وجيدة أيها القائد.

- خطتنا هذه من وحي مقترح لمربتاح، فقط أدخلنا عليها تعديلات بسيطة من واقع معرفتنا الجيدة بتضاريس الأماكن هناك.

أبدت سيرانة دهشتها ولم تخف سعادتها بما قاله القائد، فقالت:

- حسنًا هذا شيءٌ رائع، ومن الجيد أن تصطحب معك مربتاح في حملتك لتأديب هؤلاء اللصوص، لسببين أراهما جيدين، أولهما.. مشاركة مربتاح فيما أعده من خطة أثناء تنفيذها علىٰ الأرض، وثانيهما اكتسابه لخبرة قتالية هو في حاجة إليها، ومعرفته بالحدود الجنوبية لمملكتنا..

صمتت برهة، ومن ثم نظرت نظرة خاطفة إلىٰ الكاهن، واستطردت بنبرة ثابتة واثقة:

- لذا قررت أن يكون مربتاح ساعدك الأيمن في هذه المهمة.

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.

تلاه مربتاح قائلًا:

- سمعًا وطاعة يا مولاتي، وإنه لمن دواعي سروري أن أكون مساعدًا لقائد عظيم مثل القائد سنكريت.

مضت الأيام والليالي ثقيلة ومجهدة، فسيرانة تنتظر بشغفٍ أخبارًا تأتيها من القرىٰ الجنوبية تطمئنها، وسيرانة يستبد بها القلق علىٰ صحة زوجها الحبيب الذي ساءت حالته، ولا تزال تزداد سوءًا يومًا بعد يوم وليلة بعد ليلة، إلىٰ أن جاءها البشير مؤكدًا أنّ القائد ومربتاح وجنودهما علىٰ أبواب المدينة، وجاءها في ذات اللحظة النذير، إذ

دخلت عليها فجأة وبدون استئذان كبيرة الخدم المكلفة برعاية الملك المريض باكيةً هلعة، وأخبرتها أنّ مولاها أدركته غيبوبةٌ تامة.
سارعت سيرانة تهرول صوب غرفة الملك تاران الثاني، وفي ذيلها بناتها الثلاث باكياتٌ حافيات.
في لحظات تحولت ردهات القصر إلىٰ خلية نحل تعج بالمهرولين مذعورين في كل اتجاه، فمنهم من جلس القرفصاء ينتحب بصوتٍ عال، واضعًا رأسه بين كفيه، ومنهم من يهرول زائغ النظرات لا وجهة لها يتجه إليها، وآخرون يبتهلون في صمت راكعين أمام تماثيل للإله سيت، رافعي الأكف داعين لمولاهم الطيب الحنون.
في غضون دقائق كانت غرفة الملك تعج بمرتاديها، فالملك ممدد الجسد في فراشه، وتقف سيرانة فوق رأسه تجفف ما تفصد من جبينه، والطبيب يحاول جاهدًا أن يدفع في فمه المفتوح بعض المحاليل المصنوعة من أعشاب برية، وكبير السحرة يدور حول الجثمان الممدد في حلقات دائرية مكتملة دون توقف إلا عندما يتوازىٰ مع قدمي تاران العاريتين وصدره العاري، فيمرر مبخرته في دوائر صغيرة فوق القدمين وفوق منتصف صدره، بينما كبير الكهنة يتلو صلوات صامتة، وعيناه ينهمر منهما الدمع، وجسده الضخم يرتج ويلهج بالدعاء للملك بين كل صلاة وصلاة.
مي رت كانت أشدهم ثباتًا أمام هذا الموقف العصيب، فلم يكن جديدًا عليها مشاهدة لحظة احتضار، شاهدتها حين احتضر أبيها قبيل

رحيله بدقائق، وشاهدتها حين احتضر مولاها تاران الأول، إذ كانت الوحيدة التي سُمح لها بالدخول عليه، لأنه حددها بالاسم دونًا عن جميع خدمه، وبعدما لم يلب طلبه باستدعاء ابنته سيرانة وابنه تاران وزوجته لوجودهم خارج القصر في جولة بالسوق الكبير نيابة عنه، كما أنها حضرت برفقة سيرانة وفاة أمها الملكة والتي لحقت بزوجها تاران الأول بعد أشهرٍ من مغادرته إلىٰ العالم الآخر، لذا صبت كل اهتمامها ورعايتها للفتيات الثلاث الصغيرات، تربت علىٰ أكتافهم المرتعشة، وتكفكف دموعهم المنسابة، وتهدئ من روعهم.

لحظات أخرىٰ مضت، وانضم لهم مربتاح وسنكريت، الذي أصابه الخبر بوجوم ألجمه تمامًا، فوقف قريبًا من باب الغرفة منكس الرأس، يفرك كفيه في عصبية ظاهرة، بينما تقدم مربتاح حتىٰ صار قاب قوسين أو أدنىٰ من سيرانة، ولامس كتفها بكتفه وهو ينحني ليقبل جبين الملك، لمسةً ارتعش لها كامل جسدها، ثم استقام وأودع في عينيها نظرة وله عاشق، وظمأ متعطش لنشوة غشيته فجأة وذهبت فجأة فزادته عطشًا فوق عطش.

وعت سيرانة ما حاول أن يبثه إليها، ولم تقبله ليس فقط انصياعًا للنبوءة أو إيمانًا بها، فهي لا تؤمن بشيء، لا بما يدعونه الإله سيت ويعبدونه، إذ كيف تؤمن به وقد أفضىٰ لها أبوها تاران الأول أنه من صنعه وبوأه إلهً، وأنّ منت هو من روّج له وابتدع طقوسه، وليس لأنها تكره مربتاح أو لا تستلطفه، ليس لكل ذلك ولكن فقط لأنها تعشق تاران.. ذلك المحتضر بين يديها، ذلك الذي أمنته علىٰ جسدها

وأعطته له مختارة راضية وسعيدة أيضًا، وليست علىٰ استعدادٍ أن تسلم جسدها وروحها وحبها لغيره، ولو كان مربتاح نفسه قائد جيوشها القادم وحامل راية انتصاراتها المنتظرة.. كما تقول النبوءة.

٩

لم تدر سيرين ماذا تفعل أكثر مما فعلته له ومن أجله، فكلما تقترب من خطوة يبتعد عنها خطوتين أو ثلاث.

أسبوعان مضيا منذ خروج زوجته من المستشفىٰ، ومغادرتها لها مشيًا علىٰ قدميها، أسبوعان مضيا وسيرين تهاتفه عشرات المرات يوميًا ليلًا ونهارا، ولا مجيب!

تخلف عن حضور الأمسيتين معتذرًا باعتلال مزاجه النفسي، هذا ما قاله للأستاذ سامح حينما اتصل به مستفسرًا عن سبب غيابه وقد شفيت زوجته، وهذا ما أخبرهم به سامح أثناء انعقاد الندوة.

بُعيد انتهاء فعاليات الأمسية الأخيرة، لمحها الأستاذ سيد تهرول مغادرةً القاعة ودمعتان تطفران من عينيها، ناداها فلم تلتفت إليه بل واصلت سيرها لا تلوي علىٰ شيء، فلحق بها وهي تغادر المرآب بسيارتها الهوندا سيفيك ٩٢، اعترض طريق السيارة بجسده الضخم، فتوقفت.. دنا من نافذة السيارة، فرآها تحاول أن تمسح دموعها المنسابة مشيحةً بوجهها إلىٰ الجهة الأخرىٰ، قال بحنو أب ومحبة صديق وزميل أدب.

- ما دهاك يا ابنتي.

- لا شيء.. لا شيء، أنا علىٰ ما يرام.

- وهذه الدموع المنفطرة من عينيك؟

- لا تقلق يا أستاذ سيد، إنما بعض غبار غشىٰ عيني فأدمعت.

- وماذا عن شرودك المتصل خلال انعقاد الندوة؟

صمت لثوانٍ ينعم النظر إليها بحبٍ وعطف

- أفضي لي بما يؤرقك يا ابنتي، فأنا في منزلة أبيكِ، ويعلم الله كم أحبك.

انهارت في نوبة بكاء مستمر واضعة كفيها علىٰ وجهها، ومنكفئة برأسها علىٰ إطار مقود السيارة، فربت علىٰ كتفها بحنو وهمس بصوتٍ خفيض ممزوجٍ بتحسر بدا جليًا في نبرة صوته:

- أهو الأستاذ سعيد؟

هزت رأسها المنكفئ أن نعم، وتهدج صوتها وهي تنشج قائلة:

- لا أدري ماذا فعلت له كي يتحاشاني، وكأنني مرضٌ معد يخشىٰ أن تصيبه عدواه.. لا أدري ماذا أفعل.. لا أدري.. لا أدري، أنا.. أنا..

تحشرجت الكلمة في حلقها، فلا أمسكتها ولا هي أطلقتها، ربت سيد علىٰ كتفها مرة أخرىٰ وقال بهدوء:

- كفي عن البكاء الآن وامسحي دموعك يا ابنتي، وامضي في طريقك هادئة مطمئنة طالما هذا السوار يحيط بمعصمك.

أثارت جملته الأخيرة استغرابها ودهشتها، فالتفتت إليه متسائلة:

- السوار؟! ماذا تقصد يا أستاذ سيد؟

بدت علىٰ ملامحه دهشةٌ مفاجئة، سائلًا نفسه "عن أي سوارٍ تتحدث"

- أي سوار يا سيدتي؟

ازدادت دهشتها ودبيب قلق يدب بين ضلوعها

- حضرتك قلت منذ عدة ثواني (امضي في طريقك هادئة مطمئنة طالما هذا السوار يحيط بمعصمك) هذا ما قلته حرفيًا:

- أأنا قلت هذا؟!

قالت عن يقين:

- بلىٰ يا أستاذ سيد.

ابتسم وهو يشير بإصبعه إلىٰ السوار الثعباني ذو الرأس الحمراء الذي يحوط معصمها، وقال ضاحكًا:

- إذًا أسأليه فربما لديه إجابة شافية.

انعقد حاجباه وعادت برأسها قليلًا إلىٰ الخلف، وأطلت من عينيها نظرةٌ مرتعبة

- أسأله؟! أسأل من يا أستاذ؟ أهذا السوار مسحورًا؟!

ضحك حتىٰ بدت نواجذه وارتج جسده إثر ضحكاته

- أمزح معك يا سيرين، أمزح معك، حمدًا لله أن استطعت أن أخرجك مما أنت فيه ولو لدقائق وحسب

سكت هنيهة ثم أردف بلهجة واثقة:

- أما الأستاذ سعيد فدعي أمره لي وأنا كفيلٌ به وكسر تعنته غير المبرر معك وأنت ما أنت.

ثم همهم بصوت لم تتبين كلماته "رجلٌ غبي وأحمق، كيف لمثله أن لا يركع أمام هذا الجمال النادر.. كيف؟ كيف"

فأدارت محرك سيارتها وودعته ومضت مغادرة المرآب في طريقها لمنزلها، بينما غادر هو مشيًا على قدميه يغمغم، ويضرب كفًا بكف.

القمر يضيء ظلمة السماء، والنجوم تومض برهة وتختفي برهة، وصبيةٌ يتناقلون الكرة مسترشدين بأضواء أعمدة الإنارة، وسبابٌ ينهال عليهم مطرًا عبر بعض النوافذ، فلا يعبأون به ويواصلون ركلهم للكرة بأقدامهم العارية، والأستاذ سعيد يضع صينية صغيرة -على سطحها فنجانا قهوة- فوق طاولة خشبية، وجلس على مقعد خشبي القوائم وكذلك مسنده الخلفي

- اتفضل يا أستاذ سيد.. أسعدتني والله زيارتك المفاجئة هذه.

- الصاحب للصاحب يا صديقي، وأنت أستاذنا جميعًا، أفلا نسأل عنك وقد أقلقنا غيابك المستمر.

- أشكرك من كل قلبي، وأرجو أن تبلغ سلامي وشكري لجميع الزملاء.

قال سيد وقد ابتسم في خبث:

- كل الزملاء؟

مندهشًا من سؤاله، قال سعيد:

- نعم، كل الزملاء طبعًا.

- والأستاذة سيرين أيضًا؟

نكس رأسه وصمت برهة، ثم تململ في كرسيه وقال:



- أهي أخبرتك؟

وضع سيد كفيه فوق ركبتي سعيد، وعيناه مركزتان في بؤبؤي عينيه

- سيرين تعشقك يا سعيد، لم تعاملها هكذا بجفاء وغلظة؟

- لأنها.. لأنها تحبني.

- وهل تكره أن تحبك امرأة علىٰ هذا القدر من الجمال والمال والثقافة؟

- أنا لا أكرهها يا سيد، ولا أكره أحد، سيرين سيدة محترمة وذكية ومبدعة بحق، ولكنها زوجة رجلٍ آخر وأنا زوج لامرأة أخرىٰ.. أحبها ولن أحب غيرها ما حييت.

- وما ذنبها أن أحبت؟ أكان ذلك اختيارا؟ أبمقدورنا أن نتحكم فيما لا قدرة لنا ولا حول؟

ساد بينهما صمت، ارتشف خلاله سيد رشفةً من فنجان قهوته، ثم واصل قائلًا:

- أتذكر إيراسموس يا سعيد؟

- طبعا أذكره، زعيم النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر.

- أتذكر مقولته الشهيرة؟

- أي مقالة منهم، فأقواله المأثورة لا تعد ولا تحصىٰ؟

- قال إيراسموس "هناك عقل في كل إنسان، وفي كل عقل يوجد جهد يتجه إلىٰ الخير، كما أنّ الكلب وُلد من أجل الصيد، والعصفور من أجل الطيران، والثور من أجل



الحراثـة، فـإنّ الإنسـان وُلـد مـن أجـل حـب الحكمـة والقيـام بالأعمال الطيبة"

- تذكرتها يا سيد، والآن افصح عن مبتغاك من تذكيري بها.

- مقصـدي واضـح يـا سـعيد وأنـا أثـق في ذكائـك، وأنـك فهمـت المغـزىٰ مـن تـذكيري لـك بقـول إيراسـموس، فـأين حكمتـك يـا صديقي؟ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

اعتـدل سـعيد في جلسـته وامتـزج الخجـل مـع الغضـب فشـكلا سـحنة وجهه ونبرة صوته:

- أتعايرني يا أستاذ سيد؟

- حاشا لله يا سعيد، وأنت أعلم الناس بي وتعرف مدىٰ احترامي وتقديري ومحبتي لك، ما أردت قوله فقط، عاملها بالحسنىٰ يا صديقي، ولم ولن يطلب منك أحد أن تحبها، فالغد لا يعلمه إلا الله، وللقلـوب أحوالهـا ولهـا تقلباتهـا وشـطحاتها أيضًـا، مـن يدري؟! من يدري؟!



الفصل الرابع

سكنت الريح واحتجب القمر، وأظلمت السماء، وتمدد الهواء ساخنًا كما دموعهم المنسابة في صمت، وهم يشاهدون مليكهم للمرة الأولىٰ دون خوفٍ من رمية سهم أو حد سيف، جثمانه ذو الطول الفارع مسجّىٰ عاري الصدر والوجه علىٰ طاولة من خشب الصندل ذي الرائحة الذكية، يحملها ثمانية رجالٍ أشداء من شبيبة كهنة المعبد، يتقدمهم كبير الكهنة منت، وخلف الجثمان هودج يتهادىٰ بخطىٰ وئيدة مسدلةٌ ستائره السميكة من جوانبه الثلاثة، أما الوجهة فستارتها المسدلة شفافة تتيح لعيني سيرانة الدامعة مشاهدة مولاها، في وداع أخير فلا نبوءة ذُكرت عن تلاقيهما في زمنٍ آخر، وبناتها الثلاث باكياتٌ عاريةٌ رؤوسهن ينتحبن في صمت، يحملهن هودجٌ أكبر حجمًا من هودج أمهما، يليهم أربعة عجلاتٍ حربية يقودها أربعة قواد عسكريون بكامل زيهم العسكري، وفي المؤخرة لفيفٌ من الجند وخدم القصر ووصيفاته، وفي ذيل المؤخرة تتبعهم مي رت وأمها تتكئ علىٰ ساعد مي رت الأيمن بيدها اليسرىٰ، بينما اليمنىٰ تتعكز علىٰ الأرض الترابية الجافة خلال عصا خشبية قصيرة بعض الشيء، وعامة الشعب يصطفون علىٰ جانبي الطريق باكين ومولولين، وقلةٌ من النائحات ينُحن تارة، ويدقنن الطبول تارةً أخرىٰ.

كان المشهد جنائزيٌ بامتياز وجديدًا أيضًا، ففي المرة السابقة حين مات تاران الأول تمت مراسم دفنه في سرية وتحت جنح الظلام، فقد

كان موته مفاجئًا للجميع، والمملكة الناشئة لم يشتد عودها بعد، والسدرانيون متربصون علىٰ تخومها الجنوبية، لذا اقترح منت التكتم علىٰ وفاة الملك، ووافقته الملكة الأم لثقتها في رجاحة عقله ونفاذ بصيرته، أما ولي العهد وزوجته الشابة فلم يبديا اعتراضًا ولاذا طائعين إلىٰ سرداب صمت مظلم في آخره وميض ضوءٍ خفيف.

أسفل الجبل الشرقي كانت الحفرة تتهيأ لاستقبال جثمان تاران الثاني، لم يشغلها غياب روحه فمهمتها احتواء الجسد، وها هو الجسد قادم، همهمت بنبرةٍ حزينة لكنها مفعمةٌ بالصدق "من التراب يا تاران وإلىٰ التراب تعود"

وللمرة الثانية يترجل مربتاح من عربته الحربية، ويهرول صوب الجسد المسجىٰ علىٰ الطاولة الخشبية، ويقف فوق رأسه مجاورًا لسيرانة لاصقًا كتفه بكتفها، والتي انحنت لتضع قبلتها الأخيرة مودعةً رفيق عمرها، وما إن انتصبت انحنىٰ مربتاح وقبّل نفس الموضع من جبين مولاه، لتنتابه قشعريرة نشوة كتلك التي يشعر بها العاشق في لحظة ذروة لقاء حميمي.

قرأ منت بعض تراتيله الجنائزية، والتفت إلىٰ سيرانة وفي عينيه نظرةٌ سائلة فأومأت له أن نعم، فاستدار إلىٰ حيث يقف الكهنة الثمانية، وأشار لهم بالبدء في مواراة الجسد بالتراب.

انتهي المشهد، مات الملك.. عاش الملك، ولكن طرح السؤال نفسه في نفوس ثلاثة.. ثلاثة فقط دون سواهم! من الملك؟ أعقبه سؤال آخر، همهم أحدهم:

- لن أقبل أن تحكمني امرأة.

قال آخر متهكمًا:

- لكنها حكمتك يا عزيزي أم نسيت؟!

- لم أنسَ، ولكنها كانت وقتئذٍ مكلفة من الملك نفسه بإدارة شئون البلاد والعباد، وما كنت لأعصىٰ أمرًا لمن أقسمت له بالولاء والطاعة ما حييت.

قال الآخر مواصلًا تهكمه:

- حسنًا، أنت لا تزال حيّا.

- ولكنّ الملك مات، من أدين له بالطاعة والولاء مضىٰ وانتهي أمره.

قال الثالث بعد صمت طويل واضعًا حدًا لهمهماتهم، بعد أن أدرك أنّ كبير الكهنة يختلس النظر إليهم بين لحظة وأخرىٰ بينما هو يتابع طقوس الدفن:

- اصمتوا الآن ولنرجئ النقاش حين عودة، فالكاهن يرمقنا وأخاف أن يدرك بذكائه الحاد ما نحن فيه من امتعاض ورفض لتتويج ملكة علينا، ونحن حتىٰ الآن لا نعلم أهو معنا أم ضدنا، فقط نتفق الآن علىٰ موعدٍ ومكانٍ خفي نلتقي فيه، ونقرر خطوتنا القادمة بتمهل وروية.

قال أحدهم هامسًا:

- نلتقي غدًا قبيل شروق الشمس مباشرة في ضيعتي، أنتما تعرفانها بالطبع، ولكن ما لا تعرفانه أنّ بها سرداب سري ينتهي بغرفة ستكون مكان لقائنا، ولنحزم أمرنا قبل بدء مراسم التتويج، فلم ولن أقبل أن تكون تلك الأفعىٰ ملكة.

ضحك المتهكم قائلا بصوتٍ منخفض النبرة:

- من يعلم من هو الملك القادم؟! ربما يكون أنت يا سنكريت أو.. أو.. أنا.

تكملة الفقرة الأولىٰ الفصل الرابع

ليس للكاهن منت عينان فقط مثل باقي البشر، ولكن عيونه الأخرىٰ منتشرة في كل زاوية وكل حي وكل سوق بين جنبات المملكة، وربما عيونه أيضًا تشارك الزوج فراشه، والزوجة فراشها، والأبناء والديهما.

لم يرتح لما شعر به من امتعاض القادة وقت تنصيب مربتاح مساعدًا لقائد فرع العجلات الحربية، قرأ ذلك في عيونهم ببصيرته النافذة، ولم تقنعه إشادتهم بمربتاح، فتوجس منهم شرا، وها هم الليلة يتخافتون ويتهامسون في ليلةٍ لا يكافئها إلا الحزن والبكاء، لذا ما إن انتهت طقوس الدفن دنا من سيرانة هامسًا في خفةٍ وعجالة، وبلهجةٍ تغلب الأمر فيها علىٰ التمني أو الرجاء:

- تعالي إلىٰ المعبد متخفية وبصحبتك مربتاح، أحرصي ألا يراكما أحد.

اندهشت سيرانة من جرأته علىٰ توجيه الحديث لها بصيغةٍ آمرة، لكنها سرعان ما تغافلت عن ذلك إذ انتابها قلقٌ شديد، وحدثتها نفسها



"اذهبـي.. الأمـر جلـل، فخلـف الجـدران عـادةً تُحـاك المـؤامرات، وخلف الابتسامات تختبئ الكراهية"

لم تستغرق المهمة التي تصدىٰ لها مربتاح، وعاونه فيها عشرة كهنة أشداء مسلحين وفي جهوزية تامة، ساعتين زمنيتين انتهت بدفن رؤوس القواد الثلاثة، وإلقاء أجسادهم خلف الجبل طعامًا للذئاب ذات الفراء الأبيض والعيون الزرقاء.

ومع انبلاج فجر اليوم كانت عيون منت الكثيرة تخبر الشعب بخيانة القواد وتآمرهم للاستيلاء علىٰ مقادير مملكتهم ومقاديرهم وأرزاقهم، وإن كانوا تمكنوا من ذلك لاستعبدوهم، واستباحوا نساءهم، لولا إلههم سيت الذي أخبر كبير الكهنة بما يدبرون لملكتهم المعظمة سيرانة وله من مكيدةٍ تقتضي قتلهما، ولولا مهارة واخلاص وولاء مربتاح قائد جيشهم المظفر، الذي انقض عليهم في مكمنهم السري وقتلهم شر قتلة، قبل أن ينقضوا علىٰ الملكة ويقتلوها.

٢

ما هذه العتمة؟ أين أنا؟ أين أنا؟! أشباح تقترب مني حيث أقف! أنا خائفة، يخامرني شعور قوي أنهما يستهدفاني، يجب أن أختبئ.. يجب أن أختبئ، ها أنا أهرول وساقاي المرتعشتان تتعثران، أقع علىٰ ركبتيّ وكفيّ، يجب أن أزحف بسرعة، دبيب خطواتهما يقترب ويقترب.. أسمعه، أرتعش أرتعد.

- لا تخافي يا سيرين.. لا تخافي، تعالي واحتمي وراء ظهري.. تعالي بسرعة قبل أن يلمحاكِ.

- أين كنت يا أبي.. أين كنت؟ ومن هؤلاء أنا لا أعرفهما، ملامحهما طمسها الظلام، هما يرياني، كيف.. كيف.

- لا تخافي يا ابنتي ربما شبحان عابران ليس إلا.

- لا لا، إنهما يتجهان نحونا.. ها هما يتجهان نحونا، ألا تراهما؟! ألا تراهما؟

فجأة صاحت إحداهما وهي تشير بيدها إليّ حيث أتواري خلف الجسد الضخم، وكأنه جسدٌ شفاف أمكنها رؤيتي خلفه

- مولاتي.. مولاتي، ها هي انظري.. ها هي.

ارتعدت فرائصي بينما الأخرىٰ تقترب أكثر وأكثر، لم ألمح من شدة الظلام إلا عينين زرقاوين يشعان وميضًا، وبريق ذهبي حول معصمها، وهمهمة الأستاذ سيد:

- ألم أقل لك لا تخافي، إنها سيرانة يا ابنتي.

استيقظت مذعورة، وزوجها يضمّها إلىٰ صدره، ومربتًا علىٰ ظهرها براحة يده:

- سيرين استيقظي يا سيرين.. استيقظي.

مرتعدة تتصبب عرقًا:

- ماذا؟ ماذا حدث يا أحمد؟

- كابوس يا حبيبتي.. كابوس، كنتِ ترتعدين وتصرخين بصوتٍ لا يكاد يبين، هلوسة وكلمات لم أفهمها.

- أنا؟ أنا كنت أهذي وأنا نائمة؟ أنا يا أحمد.. أنا؟!

- لا تبتئسي يا حبيبتي، حلم مزعج ومضىٰ لحاله.

هدأت قليلًا وحاولت أن تسترد أنفاسها المتقطعة، وسألته:

- هل تبينت كلمة أو كلمات مما كنت أهذي به؟

- نعم، رغم أنّ صوتك كان متحشرجًا وكلماتك غير واضحة أو مفهومة إلا أنك صرخت بإِسمين.

قاطعته متلهفة:

- ما هما؟ أخبرني؟

- سيد أو جيد، أو ما يشبه ذلك وقريبا منه.

- والاسم الآخر يا أحمد؟

ضحك وأمعن النظر بحب في عينيها القلقتين

- الاسم الثاني تبينته جيدًا يا حبيبتي، لأنه يتماهىٰ مع اسمك يا سيرين.. إنه سيرانة.

سكت للحظات، ثم تمدد بكامل جسده في الفراش، وهو يدفعها برفق وحنو للتمدد والاسترخاء، داعيًا إياها للنوم فما يزال الصبح بعيدًا.

استيقظت مبكرًا علىٰ غير عادتها، كان زوجها قد غادر المنزل منذ دقائق، هكذا أخبرتها المسئولة عن تنظيف الفيلا أسبوعيًا، فقد تصادف خروجه مع قدومها، وأخبرتها أنه كان متعجلًا ومرتبكًا أيضًا، فقد دخل إلىٰ المرآب الخاص بالسيارات من بابه الخارجي.

انصتت سيرين لها وذهنها يتجه نحو نافذة أخرىٰ، التقطت هاتفها واتصلت..

- صباح الخير أستاذة سيرين، مفاجأة جميلة وسعيدة أن أستيقظ علىٰ نبرة صوتك الملائكي.

- أستاذ سيد، أنا.. أنا خائفة.. خائفة جدًا.

- مم يا سيرين؟ لقد وعدتك ووفيت بوعدي وتحدثت مع الأستاذ سعيد...

قاطعته:

- لا علاقة للأستاذ سعيد بما ينتابني من خوف، أنا.. أنا أريد أن أراك الآن وفورًا، لقد حدثت لي أشياء غريبة...

قاطعها مندهشا:

- أشياء غريبة! مثل ماذا يا ابنتي؟

- لالا، لن يناسبنا حديثًا عبر الهاتف، يجب أن نلتقي الآن، قل لي ما هو أقرب مقهىٰ سياحي أو نادىٰ اجتماعي لمنزلك، وسآتي إليك فورًا، أو أرسل لي الموقع وانتظرني هناك، فقط مسافة الطريق.

وجدته ينتظرها أمام البوابة الرئيسية لنادي هليوبوليس الاجتماعي الرياضي المواجهة لمقر رئاسة الجمهورية، دعته للركوب بجوارها، فابتسم معتذرًا وقال في لطف:

- غير مسموح بدخول السيارات الخاصة يا سيدتي، فابحثي عن موضع لسيارتك أو سلميها لأحد المشرفين ليتصرف بنفسه.



ابتسمت ودعته مرة أخرىٰ للركوب قائلة بنبرة واثقة:

- اركب يا أستاذ سيد.. أركب لو سمحت.

فركب علىٰ مضض قلقًا مما يتوقع حدوثه لاحقًا جراء محاولتها عبور بوابة النادي بسيارتها، وما أن اقتربت مقدمة سيارتها من الباب تفاجأ برجال الأمن المكلفين بحراسة البوابة وتنظيم الدخول ينهضون مهرولين يؤدون لها التحية بابتسامة عريضة، بينما سارع أحدهم بفتح البوابة علىٰ مصراعيها.

مائدةٌ صغيرة مصنوعة من خشب البامبو وسطحها زجاجي سميك عسلي اللون، وكرسيان مصنوعان من نفس نوع الخشب، جلس كل منهما علىٰ كرسي مقابلًا للآخر، وحوض حمام السباحة مملوءٌ بماء أزرق نظيف، وخالي من مرتاديه، فالوقت لا يزال مبكرًا علىٰ بدء تمارين السباحة اليومية.

- ها قد جلسنا يا ابنتي، أحكي لي لم تخافي؟ وما الذي حدث وأخافك؟

- أستاذ سيد، سأحكي لك تفصيلًا كل شيء، فقط عديني أن تصارحني بكل ما تستنبطه أو تعرفه بخبرتك وله صلة بما سأفضي به لك الآن.

اعتدل في جلسته

- يبدو أنّ الأمر جد خطير، أعدك.. أعدك يا سيدتي

- فعلاً هو خطير بل وخطير جدًا، أرعبني يا أستاذ.. أرعبني.

وبـدأت في التحـدث دون انقطـاع، وسـيد منصـتٌ لهـا باهتمـام شـديد وبتركيز أشد

حكـت لـه عـن حلمهـا ليلـة أمـس، حكـت لـه عـن السـوار الـذهبي ذي الرأس الحمراء، وكيف أنها منذ لحظة أن تسورته حول معصمها، وكل ما حولها ويحدث لها يبدو غريبًا، أخبرته أنها في البداية لم يلفت نظرها ما يحدث، واعتبرته من قبيل المصادفة، أو بتأثير من اعـتلال مزاجهـا، لكنهـا بعـد أن داهمهـا ذلـك الكـابوس ربطـت كـل الخيـوط معًـا، وتوصلت إلىٰ نتيجـة واحـدة، أنّ كـل مـا يحـدث يـرتبط ارتباطًـا وثيقًـا بالسوار، صاحبة السوار الأصلية، تلك المرأة ذات العيون الزرقاء التي غشّت منامها عنوة، سـكتت وتمعنـت في عينيـه تسـتجدي إجابـة شـافية لتساؤلاتها المنهمرة كمطرٍ كثيـف وأسـود مـن سـحابةٍ ثقيلـة لا ينضـب ماؤها.. تملل في كرسيه، لا يدري من أين يبدأ!

٣

تملـل مرتـاح في جلسـته بزيـه العسـكري متقـدمًا بـذراع عـن مقاعـد القـادة الجـدد لأفـرع الجـيش الـذين أوصـىٰ منـت بتعيينـهم خلفًـا للخـائنين الـذين تمـت تصـفيتهم بـدمٍ بـارد حـين غسـق وفي هـدوءٍ تـام، الملكـة أمامـه وقريبًـا منهـا يجلـس منـت في أريحيـة مبعثهـا مـزدوج، أولهمـا إحكـام قبضـته علـىٰ مفاصـل الحكـم بتمكينـه مـن اعـتلاء سـيرانة لعـرش المملكـة وتتويجهـا ملكـة، ومـا كـان لهـا أن تتـوج لـولاه، وثانيهمـا تحقـق جـزء مـن أجـزاء نبوءتـه، فهـا هـو

مربتـاح ذو العشـرين عامًـا ونيـف يُعـين قائـدًا للجـيش، الجـيش الـذي سيقضـي علـىٰ السـدرانيين -حسـب مـا قالـت النبـوءة - أعـداء منـت اللـدودين، فهـم في نظـره ملحـدون لا يؤمنـون بسـيت، ولا بـأي إلـهٍ آخـر، ذلـك الشـاب اليـافع ابـن الإلـه، والـذي فوضـه سـيت لهـذه المهمـة الثقيلـة، وسيقضـي علـىٰ الأخضـر واليـابس، فـلا تقـوم لهـم قيامـة بعـد القضـاء عليهم، فهـم مـن عـدم وإلـىٰ عـدمٍ لا محالـة سـيعودون.. أفـلا يحـق لـه أن يفـرح وأن يجلـس مبتسـمًا في أريحية!

مـا كـان تملـل مربتـاح لضـيقٍ يعـاني منـه بسـبب ربـاطٍ جلـدي يعتصـر خصره، ولا تأففًا من شعرٍ مستعار ثبته فوق رأسه، ولا يدري مصـدره، أهو شعر حيوان أم شعر إنسانٍ مثله قضىٰ نحبه؟ كما لم يكن تملله من تلك النظرة الباسمة في خبث، والتي مـا فتـئ منت يرمقـه بها بـين فينـةٍ وأخرىٰ، بل لحنقه الشديد وهو يرنـو إلـىٰ الكرسـي الشـاغر عـن يمـين مولاته، فلكم تمنىٰ أن يكون هو متقعده، ليس طمعًا في ملكٍ، فهو علىٰ يقين أنّ أي ملكٍ مآله إلىٰ زوال عـاجلًا أم آجـلا، ولا إلـىٰ مـال فلقـد عاش ما مضىٰ من عمره فقيـرًا، يعمـل في ضـياع الآخـرين ومـزارعهم، ويجني ما يكفي لسد رمق أمه ورمقـه، فهـو وحيـدها وفلـذة كبـدها، أو هكذا كان يعتقـد، وكـان سـعيدا وراضـيا، كـان حانقًـا ناقمًـا علـىٰ تلـك الأذرع القليلة التي تفصل بين مجلسـه وكرسـي الملـك حيـث تجلـس حبيبته ومعشوقته الأبدية سيرانة.. سيرانة التي مـا تمنـىٰ امـرأةّ سـواها،

سيرانة أميرة أحلامه في يقظته ومنامه، لمَ.. لمَ لا يكون بجوارها الآن، يلمس بأنامله أناملها العاجية، يغرق في بحور عينيها العسليتين تتقاذفه أمواج شوقها ولظىٰ لهفتها..

كان لنبرة صوتها العالية الحادة إثر سهمٍ اخترق بقوةٍ أذنيه

- أيها القائد مربتاح أين ذهبت؟! أأنت حقًا معنا؟!

انتفض واقفًا كتمثالٍ قُد من حديد

- بلىٰ يا مولاتي.

ضحكت وتبعتها ضحكات الجميع

- اعتقدنا أنك غفوت قليلًا، فرأسك تدلىٰ علىٰ صدرك دون أن تشعر.

سكتت هنيهة ثم أردفت بحنو:

- لك عذرك يا مربتاح، ونحن نقدر ذلك، فقد كانت ليلةً ثقيلة عليك وعلينا، أليس كذلك يا منت؟

- بلىٰ يا مولاتي بلىٰ، والقائد الشاب مربتاح أبلىٰ فيها بلاءً حسنا، وأراه مؤهلًا تمامًا لمهمته القادمة، فقد أحسن الإله سيت اختياره لها، وأوصىٰ لتاران الثاني بتأهيله وتجهيزه، والأمر الآن بين يديك يا مولاتي.. فبعد تعيينك له قائدًا عامًا لجيش المملكة بأفرعه الثلاث، وهو يستحق لا جدال في ذلك، يتبقىٰ فقط أن تأمريه بمهاجمة أعداء مملكتنا الجنوبيين والقضاء عليهم وقتما تشائين فهو أهلٌ لذلك وفخرٌ لنا أيضًا

- نعم.. نعم، مربتاح قائد محنك رغم صغر سنه وقلة خبرته العسكرية، إلا أنه مُلهم فقد أبلىٰ بلاءً مميزًا حين رافق الخائن سنكريت في مهمته لتأديب لصوص السدرانيين، وشهد له سنكريت بذلك في رسالةٍ أرسلها لمولاي تاران الثاني قبيل رحيله المفاجئ، تسلمتها وهي الآن محفوظة كمخطوطة وثائقية في خزانة المملكة لدىٰ كاتب الرسائل الملكية، واتكأت عليها كمصوغ لتعيين مربتاح قائدًا لجيشي، علاوةً لما قام به من جهدٍ مضنٍ ليلة أمس وأتمه علىٰ أكمل وجه وفي سريةٍ تامة.

سكتت هنيهة وأدارت رأسها وأودعت في عيني مربتاح نظرة امتنان غلفتها بحنان أم، وكان ذلك طبيعيًا، فهي لم تشعر للحظة بمشاعر أنثىٰ تجاهه، بل وأصبحت الآن فيما يبدو أقل تشككًا في صحة نبوءة كبير الكهنة منت، ولم لا؟ وكل ما حدث ويحدث حتىٰ اللحظة بنودًا من بنودها!

- مربتاح، أيها القائد العظيم استعد من الآن لمهمتك الكبيرة، فأعد العدة وأتمم جهوزية جيشك، وانتظر أوامري.

ثم نهضت منتصبة في ثبات وثقة في إشارةٍ منها لانتهاء الاجتماع، فنهضوا جميعهم وانحنوا ساجدين تحيةً لها، عدا كبير كهنتهم منت، فقد اكتفىٰ بانحناءة خفيفة كعادته، ثم بدأوا في الانصراف من القاعة، ولكنها استبقت منت ومربتاح بإشارةٍ من يدها.

٤

لم تكن شمس يوليو الحارقة قد تعافت بعد من رقدتها الطويلة نسبيًا، فبدت في ذلك الصباح حانية، غادية في حنو ورقة، كمستيقظٍ كسول يتوهم مشقة إن حاول مغادرة فراشه الوثير، ورغم ذلك تفصد جبين الأستاذ سيد حبات عرقٍ تلألأت كوميض يضيء كلما انعكس عليها ضوء شمس، ويختفي إن كساه ظل، أطال النظر إلىٰ الأفق، فجابت عيونه شرفات ونوافذ المنازل المحيطة عبر الشارع الغربي الموازي للسور الجانبي للنادي، رآها وكأنه يراها للمرة الأولىٰ، عمارات حديثة ذات وجهاتٍ بيضاء، بينما نوافذها وأبواب شرفاتها مطلية بلونٍ أزرق زاه، بينما حيّه الذي يسكن إحدىٰ شقق منازله، والقريب من موقع النادي، منازله قديمة قدم مصر الجديدة نفسها، مصر الجديدة التي أنشأها البارون البلجيكي إمبان في القرن التاسع عشر، وأقام فيها قصره الأثري المميز وقت إنشائه بقاعدةٍ ميكانيكية دوارة، تدور في تماهي دقيق مع شروق الشمس إلىٰ غروبها، ذلك القصر المهجور تم ترميمه منذ أشهرٍ مضت، وافتتح كمزار سياحي منذ أسابيع قليلة.

شقته في الطابق الثاني لمنزلٍ مكون من ثلاثة طوابق كباقي المنازل المجاورة المطلية وجهاتها بلونٍ عاجي مائلًا للسمرة الخفيفة، ونوافذه وأبواب شرفاته ذات لونٍ بني داكن..

- أستاذ.. أستاذ سيد! أين ذهبت وتركتني أنتظر؟!

ابتسم ببراءة طفل أيقظته أمه من حلمٍ جميل

- لا شيء يا ابنتي أنا معك، فقط أفكر.

أسكته تهليل رجل خمسيني طويل القامة، عرفه من صوته، فهذا الصوت مألوفًا لأذنيه

- أهلا.. أهلا أستاذة سيرين أنرتِ النادي وحي مصر الجديدة بأكمله.

ودنا منها مادًا يديه الاثنتين ضامًا كفها الأيمن بينهما، وانحنىٰ انحناءة خفيفة تحية إكبارٍ لها..

- أهلا أستاذ هشام، هذا صديقي وأستاذي الأستاذ سيد.

- الأستاذ سيد عضو عندنا في النادي، أعرفه طبعًا، وهو من الرعيل الأول للنادي وقد تعلمنا علىٰ يديهم الأدب.

سكت للحظة وهو يجلس علىٰ كرسي كان قد أحضره منذ ثوانٍ أحد العاملين، وما إن استوىٰ قاعدًا مال برأسه قليلًا ناحية سيرين، وأردف ضاحكًا:

- وسأفضي لك بسرٍ يا أستاذة، ليس لدي أدني شك في عدم إطلاع استاذنا الكبير لك عليه.

ابتسمت وعيناها موزعةٌ بين سيد وهشام..

- إذًا أخبرني به أنت، فأنا كلي آذانٌ صاغية.

- الأستاذ سيد كان مدرب كرة المضرب (التنس) الذي دربني ونمت مهاراتي علىٰ يديه لمدة خمس سنوات متصلة.

وتوجه بوجهه صوب وجه سيد مبتسمًا وقائلا:



- أتذكر يا مدربي القدير.

ابتسم سيد وعلا ملامحه بعض خجل، وأومأ برأسه مؤيدا

٥

بخطىٰ رشيقة تقدمتهما سيرانة في طريقها لاستراحة القصر، وهما يتبعانها في صمت.

غرفة فسيحة كُسيت أرضيتها بقطع حجرية مصقولة بعناية فائقة، وبدقة متناهية، ذات مساحات مختلفة وألوان مختلفة تغلب فيها اللونان الأسود والأزرق علىٰ باقي الألوان، فبدت كفسيفساء زاهية يتوسطها حوض ماء دائري الشكل في دائرته المركزية عددٌ من أحجار الجرانيت متوسطة الحجم مشكلةً جبلًا صغيرًا متدرج الطبقات، والماء يتدفق من فتحات صغيرة متجاورة بانسيابية ونعومة في طريقه إلىٰ محيط الحوض.

في ركنين متقابلين رُصت مقاعد رخامية متخذةً شكل مستطيل ناقص ضلع، وفي الركنين الآخرين فُرشت فرشٍ وثيرة مختلفة الأحجام والألوان، بينما الهواء الخارجي من أي جهةٍ دخل يخرج من الجهة المقابلة عبر كواتٍ متوسطة الارتفاع ذات مكعبة الشكل كثقوبٍ متوسطة شُقت في الجدران الأربعة، والغرفة لها بابان، أحدهما يربط بين الاستراحة وقاعة الحكم عبر الردهة الطويلة الممتدة بينهما، والباب الآخر بابٌ داخلي يربط بين الاستراحة وغرف معيشة الأسرة الحاكمة عبر ردهة قصيرة لكنها متسعة.

كانت مي رت قد أمرت الخدم بتجهيز الاستراحة لاستقبال الملكة الجديدة وضيفيها منت ومربتاح، فأعدوا أشهىٰ أنواع الطعام والعديد من أصناف الفاكهة، وقوارير من عصير العنب الأحمر الطازج وعددٍ من الأكواب الخزفية بديعة الصنع والمنظر.

جلست سيرانة باسترخاء متخذةً الضلع الأوسط من المستطيل ناقص الضلع علىٰ الجهة الشمالية للاستراحة، وأشارت لكليهما بالجلوس فجلسا، بينما تقدمت مي رت وصبت في الأقداح قدرًا من العصير الطازج، ومن ثم استأذنت مولاتها في الانصراف والخدم، إلىٰ أن تستدعيها الملكة مرة أخرىٰ عند البدء في تناول الطعام، فأذنت لها.

مسترخية بظهرها إلىٰ الظهر الحجري المعد من الرخام الأبيض، واضعةً ساقًا فوق ساق، وذراعيها العاريتين مفرودتان علىٰ استقامتهما بطول السطح العلوي للظهر الحجري، تنقر بأناملها نقرًا خفيفًا، فتتصاعد صوت رنين سوارها الذهبي ذو الرأس الحمراء، منت منهمكًا في احتساء قدح النبيذ الأحمر، بينما مربتاح تتردد عيناه بين ما تبدىٰ لها من ساقها العاجي الناعم في طراوة، وذراعيها البضتين اللدنتين، وما نفر من نهديها كذئبتين تتوقان للفرار من قيدٍ يغلهما، ومع تردد عينيه صعودًا وهبوطًا - من أخمص قدميها إلىٰ التاج الماسي المتربع في سكونٍ فوق رأسها ذي الشعر الذهبي- يتماهي خفقان فؤاده.

- أظن يا منت أنه آن أوان أن يعرف مربتاح ما نعرفه نحن عنه ولا يعرفه هو عن نفسه، وقد أضحىٰ بين ليلةٍ ونهارها قائدًا لجيش المملكة

وضع منت قدحه الفارغ أمامه، وبدا علىٰ ملامحه تفاجئه بما قالته سيرانة، إلا إنه تمالك رباطة جأشه وغمغم بصوتٍ خفيض

- نعم.. نعم آن الأوان يا مولاتي.

بنبرةٍ واثقة عاجلته قائلة:

- أخبره إذًا بأمر النبوءة.. لم الانتظار يا كبير كهنتي وصديق أبي.

لملم ساقيه الممتلئتين فتعامدتا علىٰ فخذيه السمينين، إلا أن مربتاح المندهش تساءل مستغربًا:

- نبوءة! أي نبوءة يا مولاتي؟

- لا تكن عجولًا يا مربتاح، الكاهن منت سيخبرك الآن، فقط أمهله وقتًا كي يسترد أنفاسه

ضحكت في سخرية وهي تشير بيدها إلىٰ قنينة النبيذ

- ألا ترىٰ؟ لقد أتىٰ بمفرده علىٰ نصف ما أعدته لنا مريت من عصير عنبٍ طازج.

ضحك ثلاثتهم ثم تحدث منت موجهًا كلامه وبؤبؤي عينيه صوب مربتاح

- انصت جيدًا لما سأخبرك به الآن يا بني، النبوءة تقول أنك ابن الإله سيت، وأنه أوكل إليك مهمة القضاء علىٰ السدرانيين، فأنت وأنت فقط المنوط إليه هذه المهمة الثقيلة، وأنت.. وأنت



فقط القادر علىٰ أدائها، فقد أهّلك الإله سيت لذلك، ولم يؤهل أحدًا غيرك، هذه هي النبوءة وقد وصفك لي إلهنا بعلاماتٍ وكلها تحققت بدءًا من مخالفتك لقانون المملكة بتجرؤك علىٰ رفع رأسك لترىٰ الملك تاران الثاني وإلىٰ الآن كقائدًا لجيشنا العظيم.

لم يخبره عن قصة تلاقيهما في زمنٍ مستقبلي، لاحظت سيرانة ذلك، وهمّت أن تطلب من منت ذكرها، إلا أنها تراجعت في اللحظة الأخيرة بعد أن طالبتها نفسها بالتروي متعللةً أنه مما لا شك فيه أنّ لدىٰ منت سببًا وجيهًا وقويًا أسكت لسانه عن البوح بها.



نيرمانا

الجزء الثاني

٦

كانت أذناه منصتتين لما قاله تلميذه السابق هشام والذي هو الآن رئيس مجلس الإدارة المنتخب حديثًا، ولما أفضت به سيرين من أحداث أرعبتها وأزعجتها وتبحث عن تفسير منطقي لها، بينما ذهنه الشارد ارتد إلىٰ اليوم الذي دعاها للتجول في أروقة خان الخليلي، دون أي ترتيبٍ مسبق، ولكن فقط تلبيةً لهاتف أمره بذلك فأطاع، ثم أمره بدخول محل الأنتيكات وصاغرًا أطاع، تجلىٰ في مخيلته الآن ما سبق ورآه وأدهشه وقتئذ، حين أتىٰ البائع لهما بالعلبة الخاصة ذات القطيفة الحمراء، حينئذ تبدل لون عيني البائع من سوادٍ داكن إلىٰ زرقةٍ خفيفة للحظة ثم استعادتا لونهما الطبيعي اللذان كان عليه قبل تبدلهما، ظنّ وقتها أنها ضبابة رؤية أو تشتتٌ بصري ألم بحدقتيه، فلم يعر الأمر أهمية، ولم يبح به لسيرين، ولكن الآن وبعد ما أطلعته عليه سيرين من أحداث، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتقلدها للسوار الذهبي، عاد مشهد تحول عيني البائع وتغير لونهما ليقتحم ذاكرته، ويفرض نفسه وبقوة كحدث غريب ينبغي أيضًا ربطه بالسوار القديم، والذي يعود تاريخه إلىٰ ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

التفت إلىٰ سيرين مرة أخرىٰ وقال مطمئنًا:



- كل ما أرجوه منك يا ابنتي أن تهدئي، وأعدك أنني لن أدخر جهدًا في تقصي الأمر والوقوف علىٰ حقيقته..

صمت لحظة كمن تذكر شيئًا باغته فجأة..

- والأستاذ سعيد سيكون سندًا لنا، فعمله السابق بهيئة الآثار المصرية قد يقدم لنا بسهولة ما نحتاجه من معلومات، إن لم تكن في ذاكرته، فلا شك أن تلامذته الذين هم الآن مديرو مؤسساتها لن يبخلوا عليه بما يطلبه منهم من معلومات، حتىٰ ولو كانت معلومات سرية لا ينبغي لأحد الاطلاع عليها..

أمسك عن الكلام حين تصاعد رنين هاتفها

- أيوه، أهلًا أهلًا دكتور حسام

- طبعًا طبعًا، حضرتك مرحبٌ بك في أي وقتٍ تشاء.

- حسنًا يا دكتور، سنكون في انتظارك إن شاء الله.

أغلقت الهاتف، ووضعته داخل حقيبة يدها المصنوعة من جلد التمساح، وابتسمت حين لمست أناملها علبة سجائرها مندهشة، إذ لم تدخن سيجارة منذ تدخينها لسيجارتها الصباحية المتلازمة مع فنجان قهوتها، أخرجت العلبة والقداحة، واشعلت سيجارة ثم التفتت إلىٰ سيد معتذرة:

- هذا طبيب العائلة يستأذن للمرور الدوري الشهري المعتاد.

- لا عليك يا سيدتي.

- حسنًا أكمل حديثك فأنا منصتةٌ لك.

- كل ما ارجوه منك ألا تقلقي فقط، وسأوافيكُ أولًا بأول بكل خيطٍ نتوصل إليه أنا أو سعيد.

- ولم لا أشارككما في التقصي يا أستاذ سيد.

فاجأه سؤالها المباغت والذي لم يكن يتوقعه

- لا أريد أن أثقل عليك يا سيدتي.

- بالعكس يا أستاذ سيد، فبي فضولٌ شديد لفك تلك الطلاسم في أسرع وقت، كما أنني سأتفرغ كليةً لملازمتكما في كل خطوة.

سكتت للحظة واختلست نظرة خاطفة، لمحت علىٰ وجهه ما بدا لها ارتياحًا منه وتقبلًا لها، أردفت:

- كما أنّ وجود سيارة تحت أمرتكما ستوفر الكثير من الوقت والجهد، أليس كذلك؟

- نعم نعم.. وجودك معنا في حد ذاته دافعٌ قوي لي وللأستاذ سعيد لبذل أقصىٰ جهدٍ نستطيعه.

الشمس تكاد أن تغرق في الأفق الممتد خلف بناياتٍ متراصة بتناسقٍ هندسي، مبنية علىٰ ربوةٍ متوسطة الارتفاع إذ تصب نهايات شوارعها النظيفة بشكلٍ لافت في نهري طريقين رئيسين يحدانها من الشرق والغرب، ويصل أسفلتهما البازلتي الأسود بين الشمال والجنوب، أحدهما حديث النشأة (طريق الجيش) إذ يربط القاهرة الكبرىٰ بجنوب الوادي مارًا بالجهة الشرقية لكل محافظات صعيد مصر، بينما الطريق الآخر يربط المدينة بالعاصمة المصرية.

في بهوٍ كبير متسع ذي سقفٍ عال، تجلس سيرين مرتديةّ قميصًا أصفر اللون مصنوعًا من القطن المصري الفاخر، ذا أزرارٍ سوداء لامعة، وسروالًا أسود اللون (لاميه) تصل نهايتيه إلىٰ ما أعلىٰ عقبيها بقليل، وحذاءً ذا خيوط من الجلد الطبيعي، وكعبٍ متوسط الحجم والطول، فلا هو بالعريض الضخم، ولا هو بالرفيع الطويل، واضعةً ساقًا علىٰ ساق، تتصفح مجلة أزياء إيطالية، تقلب صفحاتها بدون اكتراث، وعلىٰ مبعدةٍ منها يجلس أحمد مرتديًا بزة سوداء أنيقة وتحتها قميص ناصع البياض ورابطة عنق حريرية سوداء اللون، منتعلًا حذاءً أسود اللون، يتفحص بعض الأوراق بعناية وبتركيزٍ تام، بينما شاشة التلفاز ألعريضة تتثاءب صورها المتتابعة في رتابة إذ يتصاعد رنين جرس الباب الخارجي للمنزل، يهمهم أحمد وهو ينهض واقفًا، ليتناول جهازًا الكترونيا ويضغط بأصبعه أحد أزراه الثلاثة

- جاء في موعده كعادته.

ويتجه بخطىٰ ثابتة التناغم الحركي صوب الباب الداخلي، والفاصل بين داخل المنزل وخارجه حيث الحديقة الخضراء وأسواراها العالية، وحوض السباحة في الجهة الخلفية من المنزل ذي الطابقين، صعد دكتور حسام السلالم الرخامية العريضة والمشكلة نصف دائرة وجهته الباب الداخلي حيث ينتظره أحمد ببشاشة وترحاب.

لم يستغرق الاطمئنان الطبي لكليهما أكثر من عشر دقائق، تحقق خلالهم من انتظام دقات القلب ومقياس الضغط والنبض، ومن ثم

أعـاد أجهزتـه الطبيـة إلىٰ داخـل حقيبتـه السـوداء وأغلقهـا، وجلـس بأريحية:

- بسـم الله مـا شـاء الله، ليـت كـل المصـريين يهتمـون بصـحتهم مثلمـا تهتمـون بهـا، الحمـد لله كـل القياسـات في معـدلها الطبيعـي لشاب وشابة في العشرينات من عمرهما.

همهم أحمد مرددًا "الحمد لله" وتبعته سيرين حامدةً ربها

- ولكن هناك شيءٌ لفت نظري كطبيب يا أستاذة سيرين.

التفتت إليه سيرين وسألته بنبرةٍ يشوبها القلق

- وما هو يا دكتور؟ أخبرني؟

- أرىٰ ذبولًا ملفتًا في بشرة وجهك، يبدو لـي أن حالتـك النفسـية غير مستقرة، أو تعانين من أرقٍ دائم.

ضحكت حتىٰ بدت نواجذها وقالت:

- ويبدو لي أنّ أحمد أسرّ لك بشيء ما.

ابتسم دكتور حسام، بينما توردت بشرة أحمد خجلا

- لا تلوميــه يــا ســيدتي، زوجــك يحبــك ويخــاف عليــك، جــاءني صـباحًا في مكتبـي، كـان قلقًـا ومتـوترًا وأطلعنـي علـىٰ كل مخاوفه.

٧

انتظـرت سـيرانة أن يكمـل منـت بنـود النبـوءة، إلا أنـه لاذ بالصـمت، وتشاغل بتعبئة قدحٍ آخر، بينما مربتاح بـدا وكـأن أمـر النبـوءة لا يعنيـه،

ولم يثر فضوله لمعرفة المزيد، لم يسعده كونه ابن إله، كما لم يحزنه ذلك أيضًا، كان جل همه ومنتهي أمنياته أن يكون بجوارها، أن يلمس جسده جسدها، أن يداعب بأنامله تللك الحلي التي تزين جيدها، وتلك الأساور الذهبية التي تتراص في تناسقٍ مذهل بطول ساعدها الأيمن، عازفةً سيمفونية ملائكية كلما اهتزت واهتز ذراعها، أن تتحسس كفه بشغفٍ واشتياق ذلك السوار الذهبي الثعباني ذي الرأس الحمراء، الذي سطا بمفرده علىٰ رسغ ساعدها الأيسر، ما همه تاجها المرصع بقطعٍ من الماس والياقوت الأحمر، وهمه أن تتغلغل أصابعه بين خصلات شعرها الذهبي المنساب برقة علىٰ كتفيها العاريتين، همهم لنفسه راجيًا "قلها يا منت.. قلها، أنّ النبوءة أنبأتك أنها لي، أنّ سيرانة لي، ولي فقط؛ فأنا لا أشتهي ملكًا ولا مالا، اشتهي سيرانة.. سيرانة الأنثىٰ، ليتها كانت بين ذراعي الآن، قلها يا منت.. قلها"
انتشلته من شروده ضحكتها وهي تشير بأصابعها إليه

- انظر.. انظر يا منت، لقد غادرنا مربتاح بروحه، وأبقىٰ جسده صامتًا صمت القبور معنا.

ضحك منت بينما كان يعب الكأس العاشرة في جوفه، وترنج كرشه المتدلي أسفل صدره، وتسرسبت بضع قطراتٍ من النبيذ الأحر فبللت صدره، ولوثت بياض عباءته الناصع

- مربتاح أسعد رجل في المملكة اليوم يا مولاتي، فكيف لا يكون سعيدًا وقد أصبح بين ليلةٍ وضحاها القائد الأول، أفلا يحق له أن

يحلـق في سـماء ملكـك فـاردًا جناحيـه ويعـانق بذراعيـه شـمس مملكتك وقمرها!

ضحكت سيرانة واستحسنت إطراء كبير كهنتها لها

- فليحلق اليوم كما يشاء، وليلهو ويشرب ويلعب مع جواريّ الحسان، فكلهن بلا استثناء رهن إشارته، حتىٰ مي رت.. إن اشتهاها فهي له..

صمتت برهة ثم التفتت إلىٰ منت وقالت بخبث:

- وأنت يا منت أيضًا لك مثل ما لمربتاح إلا مي رت، فاخلع عنك عباءتك والهو، فاليوم خمر وغدًا أمر.

كانت تعلم يقينًا أنّ منت شغوفٌ ب مي رت، أخبرتها مي رت مرارًا أنه كاهنٌ فاسق، يتحرش بها كلما ذهبت للصلاة في المعبد، وإن غابت أرسل لها يأمرها بالمجيء للمعبد، متعللًا أنّ هذه رغبة الإله سيت، فارتأت سيرانة في استثنائها لها ورقةً ضغطٍ تناوره بها متىٰ شاءت، وما أقواها من وسيلة ضغط، وما أبرعها مي رت كأنثىٰ يتهافت عليها الرجال، حتىٰ منت بدهائه وسعة حيلته وسطوته سحرته أنوثتها.

خجِل مربتاح فتوردت وجنتاه، إلا أنه وجد في اللحظة الآنية فرصة إن أفلتها لن يعوضها، وربما لا يحظىٰ مستقبلًا بمثلها، فتشجع وأخذ نفسًا عميقًا اختتمه بتنهيدة مسموعة:

- أشكرك يا مولاتي، لا رغبة لي في اللهو واللعب، وإنما هي امرأة.. امرأة واحدة أتمناها وأشتهيها.



- حسنًا، أخبرني من هي وسآتيك بها قبل أن تقوم من مقامك هذا؟

تنهد متحسرًا وأردف بنبرة كستها مسحة حزن:

- إن لم تعرفيها يا مولاتي، اسألي الكاهن منت عنها، فأنا إن أسررت لك باسمها ربما فقدتها للأبد، لن أخاطر يا مولاتي فعذرا.

أدركت سيرانة مبتغاه وتعامت عامدة، إذ كيف تهبه ما لا تملكه، فروحها معلقةٌ بحبيبها تاران وإن رحل، وجسدها حرمته علىٰ من سواه وإن غادر، والنبوءة.. النبوءة أنبأت أنه ليس لها الآن، ولكن في زمنٍ آخر كما أكد لها منت، فلتنتظر وليصطبر.

وضع منت قدحه أمامه ونهض مترنحا، وخشىٰ أن تفسد كلمات مربتاح متعة يومه

- سمعًا وطاعة يا مولاتي، اليوم خمر وغدًا أمر، هيا هيا يا مربتاح نلهو ونشرب.. هيا هيا، فأمامنا يومٌ حافلٌ بالمشقة والتعب وجهد الرجال.

أشارت سيرانة بطرف عينها إلىٰ مي رت، والتي كانت واقفةً قبالة الباب الخلفي المغلق، فسارعت بفتحه، وتوافدت الراقصات بأزيائهن القصيرة، فلا تكاد تخفي قدر ما تظهر من مفاتن أجسادهن الرشيقة، وتلتهن المعازف بآلاتهم الوترية، وحاملات النبيذ والأقداح، بينما تسحبت سيرانة إلىٰ خارج القاعة من خلال بابها الرئيس، حيث

الحديقة الكبيرة وأشجار الليمون والبرتقال، وقد نضجت ثمارها وأينعت، فملأت المكان رائحتها المميزة والتي كانت سيرانة تلتمس في التجول بين أشجارها راحةً نفسيةً لها.

٨

ساعتان قضاهما دكتور حسام مع سيرين، يحاورها وتحاوره، يسألها فتجيبه، إن صمتت يتأملها مسجلًا خلجاتها في ذاكرته، إن شردت يتفحصها بعينين ثاقبتين، أسئلته مرتبة ومتصاعدة كمتوالية هندسية، أو كهرم مقلوب قاعدته صفرية ورأسه متسع، إجاباتها عفوية فلم تكن راغبةً في إخفاء شيء، قالت لنفسها "هذا طبيبي فإن كنت مريضةً حقا فلأُعالج، وإن كنت سوية لا علةً بي فحسنًا يفعل، يطمئن زوجي الحبيب، وأطمئن أنا أيضًا، ويطمئن طبيبي"

وضع أجندةً صغيرة في الجيب الداخلي لبزته الرمادية وقلمه، ثم نهض مستأذنًا بعد أن ناول ورقة طبية لسيرين قائلًا:

- هذا الدواء سيساعدك علىٰ الاسترخاء والنوم الهادئ، نوعٌ خفيف لا خوف من إدمان.. فقط تناولي حبةً واحدة قبيل موعد نومك بريع ساعة زمنية.

- هل أنا مريضة يا دكتور حسام؟

ضحك وبش وجهه بابتسامة عريضة:

- حضرتك سليمة مائة في المائة، فقط أرق أنتجه إرهاقك لذهنك بصورة مبالغٌ فيها خلال أيامك السابقة، لا تقلقي ولا



تخشي شيئا، يومين أو ثلاثة علىٰ الأكثر وتعود الأمور لسابق عهدها.

مضىٰ صوب الباب وفي إثره أحمد يتبعه مهمهمًا بصوت مسموع

- مشوار بسيط وأعود يا حبيبتي، لن أتأخر وانتظريني حتىٰ نتناول عشاءنا معًا.

بقيت سيرين جالسةً مكانها ثم ما لبثت وأن نهضت ومضت تعبر الباب الداخلي إلىٰ الحديقة الكبيرة المحيطة بالمنزل، تتريض بين أشجار الليمون والبرتقال، وقد نضجت ثمارها ينعت زهورها فملأت الهواء الذي تتنفسه من حولها عبيرًا تحبه.

رن هاتفها الجوال، تطلعت إلىٰ شاشته، فبش وجهه وانفرج أساريره

- أهلًا أهلًا أستاذ سعيد، أخيرًا تذكرت تلميذتك يا أستاذي العزيز.

- حدثني الأستاذ سيد عما دار بينكما وما اتفقتما عليه، وعن الدور الذي أوكلته لي حضرتك مشاركًا معكما في التوصل لحل لغز السوار الذهبي.

سكت هنيهة ليسترد أنفاسه بعد هذا القول التقريري المقيت

- أولًا أود أن أشكرك لثقتك بي، وثانيًا، لقد أجريت اتصالًا بأحد تلامذتي في هيئة الأثار، فرحب بنا وحدد لي موعدًا في مكتبه في تمام الحادية عشر صباحًا، وقد أخبرت سيد بالموعد ووافق، وأنا الآن انتظر موافقتك إن ناسبك الموعد، أو أعود وأهاتف

الأستاذ حسن لتحديد موعدٍ آخر إن لم يناسب هذا التوقيت ظروفك الخاصة

- لا لا، يناسبني تمامًا يا سيدي.. يناسبني تمامًا، فقط قل لي أين نلتقي لنذهب سويًا بسيارتي.

- حسنًا سأنتظركما أمام البوابة الرئيسية لنادي هليوبوليس، حيث التقيتما صباح اليوم

- لا، ائذن لي يا سيدي أن أمر عليك وأقلك من أمام بيتك، فالمسافة بينه وبين النادي مسافة طويلة، كما أنك في طريقي إليه، والأستاذ سيد لا مشكلة لديه، فبيته على بعد خطوات قليلة من النادي.

انتظرته أن يرد، إلا أنه لاذ بالصمت

- ائذن لي يا سيدي، أرجوك.

- حسنًا يا أستاذة سيرين، سأنتظرك في الزاوية الشرقية من الميدان الرئيسي القريب من منزلي، فلا داعي لتوغلك بسيارتك في الشوارع الضيقة المؤدية لمنزلي.

- حسنًا كيفما شئت يا عزيزي.

- أيناسبك العاشرة من صباح الغد؟

- تمامًا، موعد مناسب تمامًا، سأمر عليك في تمام العاشرة إن شاء الله، أشكرك.. أشكرك جدًا.. جدًا جدًا

ما إن أنهى أحمد مشواره، توجه بسيارته قاصدًا عيادة الدكتور حسام

- أريد أن أطمئن أرجوك يا دكتور.

- استرح أولًا يا أستاذ أحمد.
- لن أرتاح أو يهدأ لي بال قبل الاطمئنان علىٰ سيرين
- لا تبالغ في قلقك ومخاوفك يا عزيزي، فذلك سيعود بالضرر عليك أنت أيضًا
- أفهم من كلامك أنٍ سيرين مريضة، أليس كذلك؟
- يا عزيزي سأصدقك القول، أنا بالفعل عاجزٌ عن توصيف حالتها، فهي من الزاوية الطبية ليس بها علة ظاهرة، ولكن بصفتي طبيب أيضًا لا يمكنني الجزم أنها سليمة تماما.
- لقد وضعتني بين فكي الرحىٰ! أهي مريضة فنباشر علاجها، أم غير مريضة فننسىٰ الأمر برمته؟
- كما قلت لك من وجهة نظر الطب غير مريضة، ولكن بها خللٌ ما في مكان ما غير محدد وغير منظور طبيًا
صمت برهة يفكر بعمق، ثم أردف:
- أمهلني بعض الوقت يا أستاذ أحمد ريثما أناقش حالتها كما رصدتها أثناء حديثي معها مع بعض استشاريي الأمراض النفسية الذين أثق في قدراتهم وسعة اطلاعهم علىٰ كل ما هو جديد في هذا الشأن.

٩

حياتان متباينتان يضمها بين جنباته الأربعة سورٌ كبير من الحجر الجيري الأبيض، ويفصلهما جدارٌ جرانيتي، فخلفه عازفات

وراقصات وكؤوس خمرٍ تدور، ورجلٌ ستيني نصفه الأعلىٰ عاري، وكرشه يتأرجح يمنةً ويسرىٰ متناغمًا مع اهتزاز أرداف الراقصات، مستلقيًا علىٰ فرشٍ من سندسٍ واستبرق، يتوسط بجسده الضخم فتاتين شبه عاريتين إلا من غلالاتٍ قصيرة وشفافة، ورجلٌ آخر يتكئ بساعده الأيمن علىٰ حافة كوة متوسطة الارتفاع، متلصصًا علىٰ حياةٍ أخرىٰ، ففي الحديقة امرأةٌ أربعينية تلهو وثلاث فراشاتٍ صغار، امرأةٌ خلعت تاجها عن رأسها ووضعته أسفل شجرة برتقال، تلاحق ابنتها الصغرىٰ فيهتز ردفاها ونهديها البارزان كثمرتي مانجو، وتصدر حلي ساعدها الأيمن أنغامًا يهتز لها نبض قلبه، بينما الفتاتان يضحكان في سعادة، كادت سيرانة أن تمسك بها، لكنها تعثرت ووقعت، ندت عنه صرخةٌ خافتة، حملها النسيم إلىٰ أذني الفتاة الكبرىٰ، لمحته متخفيًا خلف الكوة، أشارت له بيدها أن تعالىٰ، تجمد حيث يقف متواريًا، دنت الفتاة من أمها، وهمست في أذنها وأصبعها يشير إلىٰ مكان اختبائه، فأشارت له الملكة أن تعالىٰ.

تقدم منهم بخطىٰ مرتعشة، والعرق يتفصد من جبينه، اصطفت الفراشات الثلاث بجوار أمهما، الكبرىٰ عن يمينها والصغيرتان عن يسارها

- ألم تعجبك أيٌ من هؤلاء الجميلات يا مربتاح؟

همهم بحروفٍ تكسرت علىٰ شفتيه المرتعشتين، وتناثرت كقطع زجاجٍ صغيرة، لملمتها أذن سيرانة ووعتها، فقد تشابهت مع ما أنبأها به حين اجتماع، فتغافلت عنها كما سبق وتغافلت، ودعته للهو مع

بناتها، وستريح هي في ظل أغصان شجرة ليمون من أشجار الحديقة، وتـركتهم ومضت إلىٰ حيث الظل ورافا، وعيناه تلاحق ساقيها المنحوتتين وردفيها المستديرتين في تماثل، جذبته الصغرىٰ من طرف ثوبه الأبيض وقالت ضاحكة:

- أغمض عينيك يا مرتاح للحظات، وسنختفي أنا وأختاي وعليك الاهتداء إلىٰ أماكن اختبائنا.

أردفت الكبرىٰ:

- إن فزت كافأتك أمي، وعاقبتك إن خسرت.

أغمض عينيه، فجرين مسرعاتٍ واختبأن، فنادته سيرانة المستلقية تحت شجرة الليمون ممددةً ساقًا وثانيةً الأخرىٰ

- الآن افتح عينيك فقد اختبأن وعليك مهمة العثور عليهن

وضحكت قائلة:

- وإلا عاقبتك يا قائد جيشي، وستدرك حينها مدىٰ قسوتي

"أفي الكون أقسىٰ مما أنا فيه الآن، أميرتي وقرة عيني يفصل بيني وبين روحها وقلبها وثمراتٍ يانعاتٍ شكلن تضاريس جسدها، ولا أستطيع أن أقربها، أن ألمسها، أن أضمها بين ذراعي، هل يوجد أقسىٰ مما أعانيه.. يا سيرانة"

حدث نفسه وحدثته، ومضىٰ يتحسس طريقه بين الأشجار باحثًا عن فراشاتٍ صغار يختبئن في مكانٍ ما داخل الحديقة.

كانت سيرانة علىٰ ثقةٍ تامة أنه سيعثر عليهن، ليس لفطنة منه أو دهاء، ولكن لأن ابنتها الكبرىٰ تريده أن يفوز، لذا ستظهر له نفسها من مخبأها، وسترشده إلىٰ مكانيّ اختباء أختيها، تريده أن يفوز وتكافئه أمها، وتدعو في قرارة نفسها أن تكون هي جائزته، سيرانة تدرك ذلك حين رأت في عيني ابنتها اشتهاءً لمربتاح، وهو يتقدم نحوهم، وتذكرت حين عرضت عليها أن تُغريه، وأنها آنَذَاك رفضت، فهل توافق الآن؟ وإن وافقت ومنحته ابنتها كجائزةٍ له، أتمنحها له زوجة، أم محظيةً لليلة تروي عطش ابنتها، وأيضًا تتبين صدق النبوءة من عدمها، النبوءة التي أكدت أنّ مربتاح لها، ولها وحدها ولكن في عالمٍ آخر وزمنٍ آخر، وأنه محرمٌ عليه أجساد النساء إلا جسدها، أسئلة كثيرة تداعت عليها تداعي النحل علىٰ الرحيق، ولم تركن إلىٰ إجابةٍ شافية، تتردد بين هذا وذاك، إلىٰ أن لاح لها من بين الأشجار مربتاح ممسكًا بفراشاتها الثلاث.



الفصل الخامس والأخير

عاد أحمد وكانت سيرين في انتظاره وقد أعدت مائدة العشاء بنفسها في حديقة المنزل الخلفية، حيث قامت بشواء قطع اللحم بتعريضها لحرارة هادئة منبعثة من أحجار الفحم الملتهبة، ووضعت ما نضج منها في صحنين مستقلين، وعلىٰ المائدة الزجاجية ذات الأرجل المجدولة من ألياف خشب البامبو وضعت كوبين وزجاجتي ماء ودورق مشروب من عصير العنب الأحمر.

فرك عينيه مذهولًا مما يراه ماثلًا أمام عينيه، اللتان تتبعان خطواتها الرشيقة وابتسامتها المضيئة كبدرٍ صيفي في منتصف شهرٍ عربي، كان القمر قريبًا جدًا من الطبقة العليا لغلاف الأرض، لكن إشراقة عينيها كانت الأقرب لقلبه، والأشد إضاءة، فجلس صامتًا يتأملها في جيئتها ورواحها بين موقد الفحم والمائدة الصغيرة، امرأةً أحبها وتاق إليها بعد غيابٍ عنه بروحها وابتسامتها العفوية، ونظرتها العاشقة التي تذيبه سحرا، ها هي قد عادت إليه فنسىٰ كل ما قاله له الطبيب عنها، ولم يتذكره وقد تلاشىٰ، ولم يخلف وراءه أثرا

ضاحكته ممازحة:

- هل طمأنك دكتور حسام؟ أم تعاظمت مخاوفك قلقًا عليّ؟

مشدوهًا يقول والفرحة تفيض من نظرته لها.

- مالي وما قاله حسام، وأنت الآن بهجتي ومبعث سروري.

استيقظت مبكرًا بينما أحمد لا يزال نائما، وذهبت من فورها إلىٰ الحمام الملحق بغرفة نومها، وعادت لتجلس أمام مرآتها تجفف شعرها المبتل بتيارٍ متردد من الهواء الساخن المنبعث من فوهة مجفف الشعر الكهربائي، أخرجت علبة مجوهراتها وانتقت مجموعة من الأساور الذهبية والماسية حتىٰ كاد ألا يظهر من بشرة ساعدها الأيسر شيءٌ من الرسغ إلىٰ الكوع، بينما ساعدها الأيمن يتسوّره قريبًا من رسغها سوارٌ ذهبي وحيد، وكأنه يأبىٰ بصلفٍ وكبرياء أن يشاركه آخرون.

انتقت عقدًا من اللؤلؤ الحر وطوقت به عنقها، وقرطين من حبات اللؤلؤ أيضًا ثبتتهما إلىٰ أذنيها، ولم تنس أن تزين كاحلها الأيسر بسلسلةٍ ذهبية رقيقة يتدلىٰ منها قلب ذهبي صغير.

توقفت مليًا مترددةً بين لونين، أيهما تختار؟ كلاهما يتسق مع حليّها وتسريحة شعرها، أخيرًا ارتدت الأسود منهما، كان قصيرًا دون إسفاف، وطويلًا دون حجب، وكاشفًا دون ابتذال، وساترًا بإفصاح، وأحمد لا يزال نائمًا، تعطرت بعطرها المفضل (بويزون) وانتعلت حذاءها الأسود ذا الكعب الرفيع، ألقت نظرة أخيرة علىٰ انعكاسها في المرآة، ومضت إلىٰ خارج الغرفة ومنها إلىٰ مرآب سيارتها عبر بابه الداخلي، وأحمد لا يزال نائما!

انطلقت بجناحي توقٍ ولهفة تقود سيارتها المفضلة ووجهتها إلىٰ حيث سينتظرها من تتحرق شوقًا لرؤيته، وللغرق في عينيه العسليتين.

تعجبت من نفسها، فقد بدا لها الطريق جميلًا حريريًا منسابًا كنهرٍ بلا أمواج، لم تشوه صورته في مخيلتها كثرة الإصلاحات الممتدة على جانبي الطريق الدائري وبطوله أيضًا، رأتها حدائق مزهرة يفوح عطرها فيملأ الهواء الطلق عبيرا.

لمحته واقفًا في ظل شجرة من الأشجار القليلة المتناثرة بعشوائية فوق أرصفة الميدان

- صباح الخير يا سيدتي.
- وأي خيرٍ أفضل من لقاء أستاذي!

خجلًا همهم

- أشكرك يا سيدتي.

استوقفه زينتها المبالغ فيها وغير المناسبة البتة لزيارة عمل

- لسنا ذاهبين لحفل عرسٍ يا سيدتي!

ابتسمت بينما عيناه تغوصان في عمق حدقتيه..

- اليوم يوم عرسي وقد انتظرته منذ آلاف السنين.

ارتجف في ذعر، فلا الصوت صوتها ولا النظرة نظرتها

- ماذا؟

تطلعت إليه في استغراب

- ماذا.. ماذا؟
- ما قلتيه منذ لحظات يا سيدتي.

مندهشةً تسأله:

- أنا؟! أأنا قلت شيئا؟!

بدا الأمر مربكًا وعصيًا علىٰ الاستيعاب، فآثر عدم الخوض فيه، وأدار وجهه إلىٰ الجهة الأخرىٰ ثم أشار لها بيده:

- انحرفي بالسيارة إلىٰ ذلك الطريق الفرعي، سيختصر لنا وقتًا لا بأس به.

انحرفت بعد أن خففت من سرعة السيارة، والتفتت إليه متسائلة:

- أسمعت شيئًا صدر مني فعلًا يا أستاذ سعيد؟

لمح في نبرة صوتها جدية مشوبة بقلق

- لا عليك سيدتي، ربما هي تهيؤات ليس إلا

صمتت بعد أن أيقنت محاولته تناسي الأمر، ثم أردفت بعد لحظة أو لحظتين:

- ممكن سؤال شخصي يا أستاذي؟

- لك أن تسألي يا سيدتي.

- هل خامرك شعورٌ ما أننا التقينا، أقصد أنا وأنت في زمنٍ سابق؟

صباحًا عادت سارة كما ذهبت، وكانت سيرانة تنتظرها متلهفةً في شرفة غرفتها المطلة علىٰ الحديقة الكبيرة، تمشي بخطىٰ وئيدة مثقلة، فتوجست في نفسها خيفة، تبدلت في لحظة إلىٰ ابتسامةٍ عريضة، وترددت كبندول ساعة علق بين علامتين، إن تجاوز إحداهما ودنا من الأخرىٰ، ارتد في لحظة عائدًا إلىٰ أولاهما

- هيا ابنتي أخبريني بما حدث تفصيلًا، وأحرصي ألا يفوتك شيءٌ دون ذكره لي

بنبرةٍ محبطة سبقتها تنهيدة يأس:

- لم يحدث شيء يا أمي.. لم يحدث.

بصوتٍ ثابت وواضح قالت:

- ألم يضاجعك هذا الأخرق اللعين؟

- بل لم يلمسني، حافظ طوال الليل ونحن نتحدث أن تكون هناك مسافةٌ بيننا، لا يتخطاها ولا أتخطاها، حتىٰ عندما غالبنا النعاس ترك لي فراشه، وافترش أرضية الغرفة

- أحمق.. كيف يجرؤ علىٰ رفض أميرة؟! سأعاقبه عقابًا قاسيًا علىٰ فعلته الشنيعة معك.

- لا.. لا يا أمي، مربتاح رجلٌ احترم نفسه واحترمني أيضًا، كان حنونًا عطوفًا كأخٍ محب، ليتك كنتِ معنا وشاهدتِ حفاوته بي وسعادته بحديثي معه.

قاطعتها سيرانة بعصبية:

- لكنه رغم كل ذلك لم يضاجعك، الويل له، لقد أهان أنوثتك

- لا يا أمي، بل قولي علمني درسًا كم كنت في حاجة إليه كنبراسٍ يضيء مستقبل حياتي.

- درس؟! أي درس يا سارة؟

- علمني أن لا أهب جسدي إلا لمن يستحقه، وليس فقط إرضاءً لنزوة عابرة، أو إرواءً لعطشٍ مؤقت، وقال أنه لا يستحقني ليس لعيب فيه أو نقيصة، بل لأنه يعشق امرأةً أخرىٰ،

وأنه وهب جسده وروحه لها، مربتاح شابٌ لا مثيل له يا أمي، عاشقٌ حتىٰ الثمالة، لقد رأيت ذلك في عينيه وهو يحدثني عنها

اعتدلت في فراشها وجلست القرفصاء بعد أن كانت متكئة علىٰ ساعدها الأيمن وقالت:

- أحدثك عنها؟ حسنًا أخبريني ما قاله ولا تغفلي شيئا.

- قال عنها يصفها.. امرأة كالحلم، لا شبيه لها، تجمع الشمس والقمر في عينيها، صوتها معزوفة إلهية كأنّ سيت قد ضمّنه كل ترانيم السماء وهزيم الريح وزقزقة الكروان، جسدها منحوتةٌ عاجية في لون بشرته، وله نعومة أفعىٰ في لدانته، كما الكوبرا رشيقة، وممشوقة في استقامة عند التحدي، وقال أيضًا..

سكتت سارة تنعم النظر إلىٰ أمها التي سافرت بمخيلتها إلىٰ مكانٍ بعيد وزمنٍ آخر

- لمَ سكوتك؟ أكملي يا ابنتي.

- قال.. قال..

- قولي ماذا قال يا سارة؟

- قال أنّ تلك المرأة بيننا، معنا في هذا القصر.

- ألم يشِ لك باسمها؟

- لا يا أمي لم يقل عنها سوىٰ ما سبق وذكرته لك آنفا، ولكني.. أحسبه يقصدك أنت يا أمي، أو هذا ما ظننته، وقد أكون مخطئةً، وربما..

وحدقت متمعنة في عيني سيرانة تستشف ردة فعلها، ثم واصلت:

- ربما أكون علىٰ صواب أيضًا.

أشاحت سيرانة بوجهها إلىٰ الجهة الأخرىٰ للحظة، ثم قالت وهي تنهض من فراشها، وتدلت قدماها حتىٰ لامست أرضية الغرفة.

- لا.. لا أظن أنّ حدسك صائبًا يا ابنتي، فأنا عشقت أباك عشقًا لا مثيل له، بل ولا زلت أعشقه حتىٰ بعد رحيله المفاجئ أول أمس، وقد قطعت عهدًا علىٰ نفسي ألا أسلم ما وهبته له لغيره ما حييت، فلا يوجد علىٰ الأرض من يستحقه، أليس هذا ما علمك إياه مربتاح؟

قاطعتها الفتاة بثبات:

- بلىٰ يا أمي، ولكن حدسي ينصب علىٰ عشق مربتاح ومن يعشقها وليس عليك ومن تعشقين.

أعاد سؤالها المباغت مشهدًا لم يستوعبه منذ لحظات، وأطل مشهدًا آخر من كوةٍ ضيقة في سرداب ذاكرته، ليلة أن رآها وسمعها لأول مرة، وبدا وقتها صوتها مألوفًا لديه، بل كاد يجزم أنهما تقابلا من قبل في زمنٍ آخر، فاختلط المشهدان وامتزجا، فتعثرت الأحرف في حلقه، والأجوبة في ذهنه، فآثر الصمت كأن لم يسمع سؤالها، فباغتته بسؤالٍ آخر

- قل لي يا أستاذ سعيد، ما اسم تلميذك الذي سيساعدنا في بحثنا؟

أنقذه سؤالها من مستنقع صمتٍ ولجه طواعية

- الأستاذ الدكتور شفيق عبد المنعم.. مدير عام المخطوطات والوثائق

تناولت هاتفها بخفة، وبحثت بعينيها عن اسم معين

- صباح الخير يا دكتور منير، أنا في طريقي الآن لمقابلة الاستاذ شفيق عبد المنعم، مدير المخطوطات والوثائق

- شكرًا يا دكتور، سلامي لزوجتك الحبيبة.

التقطا في طريقهما الأستاذ سيد من ميدان الكوربة بمصر الجديدة، وواصلوا طريقهم لمبنىٰ هيئة الآثار المصرية في الطرف الجنوبي الشرقي لمدينة القاهرة.

أدهشهما الحفاوة التي استقبلوهم بها عند الباب المكهرب لمبنىٰ الهيئة، إذ اقترب من السيارة مرحبًا رئيس مجلس إدارة الهيئة، وانحنىٰ بود محييًا سيرين، ومن خلفه تقدم الأستاذ شفيق وابتسامة عريضة علىٰ شفتيه مرحبًا بالسيدة سيرين، وبأستاذه ومديره السابق الأستاذ سعيد، وبثالثهما الأستاذ سيد، انفتحت الأبواب علىٰ مصراعيها، وانطلقت السيارة إلىٰ الداخل وسيرين تنصت لإرشادات رئيس مجلس الإدارة، والذي اتخذ مجلسَه بجوار سيد في المقعد الخلفي للسيارة.

غرفة مكيفة متوسطة الاتساع تتوسطها مائدة مستديرة، وحولها ثلاثة مقاعد حديثة مكسوة بجلدٍ أسود اللون، وفي زاويتين من زواياها أريكتان عريضتان من الجلد الفاخر، خلف إحداهما باب زجاجي يفصل بين الغرفة وشرفتها المطلة علىٰ أهرامات سقارة المدرجة،

وثلاجة كبيرة ذات بابين قائمة في الزاوية الثالثة للغرفة، يجاورها مبردٌ للمياه، دخلوها يرافقهم رئيس مجلس إدارة الهيئة، والتحق بهم في غضون دقائق الدكتور شفيق

كان سيد مصعوقًا من الدهشة، تتخبط علامات الاستفهام في رأسه، وتصب كلها في بوتقة سؤالٍ واحد، من هذه المرأة؟، بينما كان سعيد أقل دهشة، فهذه الغرفة منشأةٌ منذ أمد بعيد، ومخصصة فقط لاستقبال نخبة النخبة من ساكني الطبقة العليا في البناء الهندسي الهرمي للمجتمع المصري، كما أنه كان حاضرًا بروحه وجسده حين هاتفت سيرين شخصًا ما أثناء قيادتها لسيارتها متجهين إلىٰ حيث ينتظرهم سيد.

ابتسم خفية وهمهم لنفسه "جئنا نبحث عن حلٍ للغز سوارٍ قديم، فإذا بنا أمام لغزٌ غموضا، من هذه المرأة؟ لم اهتمامها الشديد والملفت بي؟ في عينيها ولهٌ أرصده، وشبقٌ يخجلني وأرفضه، رأيتها من قبل، وسمعتها من قبل، ولكن أين ومتىٰ وكيف"

انتشله عنوةً من شروده أوامر تلاها في تتابع سليم وبنبرة ثابتة:

- دكتور شفيق.. لن أوصيك بضيفتنا العزيزة، أنت تعرف التعليمات فاتبعها مذللًا كافة العقبات لتلبية رغباتها، مفهوم؟

- مفهوم يا أفندم، الإدارة كلها بعامليها ووثائقها رهن أشارتها

ودعهم وانصرف بعد أن شدد علىٰ شفيق هامسًا له:

- لا أريد شكوىٰ يا شفيق، مراكزنا كلنا معلقةٌ في عنقك.

دعاهم شفيق للجلوس ريثما يتم تقديم واجب الضيافة، ومن ثم يبدأ في إمدادهم بما يريدون من مخطوطات ووثائق هم في حاجةٍ للاطلاع عليها.

استأذن سعيد سيرين أن تعيد علىٰ مسامعه ما روته آنفًا للأستاذ سيد، فبدأت تحكي منذ غادرا مستشفىٰ الحسين وقت أن زاراه إثر تعرض زوجته لأزمة قلبية.

حينما وصلت إلىٰ لحظة اختيارها لذلك السوار اللغز، ألقىٰ سعيد نظرةً سريعة إلىٰ ذات السوار المحيط برسغها، وجده مألوفًا لديه، وشعر أنه رآه من قبل، إلا أنه عزا تلك الألفة إلىٰ ما يشبه التأكيد، أنه بالفعل رآه يتسور معصمها ويديها قابضةٌ علىٰ مقود السيارة، لم يلفت نظره حينها سوارٌ يتيم في ساعدٍ واحد، وإنما الموسيقىٰ المتناغمة الصاعدة من احتكاك ست أساور ذهبية وماسية تغطي كامل مساحة ساعدها الأيسر.

وكأن اليوم هو اليوم وكأن الفرحة هي الفرحة، رغم آلافٍ من السنين تفصل بينهما.

عاد مربتاح متقدمًا جيشه المنتصر، وأبواب المدينة مفتوحةٌ علىٰ مصارعها لاستقباله، والشعب بين راقصٍ وعازفٍ ومغني، وسيرانة في أوج جمالها وتاجها المرصع بالياقوت الأحمر وأحجار ألماس يضفي جمالًا فوق جمالها، عن يمينها تقف مي رت كما حوريةٍ هبطت من السماء، أو جنيةٍ طفت من أعماق محيط، ومنت عن يسارها مرتديًا عباءته البيضاء، وعلىٰ مقربةٍ منهم تصطف الفراشات الثلاث

تتوسطهن سارة، يقفون في شرفة القصر ينتظرون بشغف عبور قائد جيشهم المظفر بوابته..

وعاد الدكتور شفيق عبد المنعم حاملًا بين يديه المخطوطة الجلدية، ويتبع خطاه عن كثب المترجم الموكل إليه مهمة ترجمة المخطوطات من الهيروغلفية إلىٰ العربية، وثلاثتهم واقفين متأهبين لاستلام المخطوطة وفتحها، يحدوهم الأمل في فتحٍ قريب، ويساورهم القلق من خيبة أمل.

تناولت سيرين منه المخطوطة، وشكرته ففهم من نظرتها رسالتها المرسلة إليه، فودعهم وانصرف.

جلس ثلاثتهم متحلقين حول الطاولة، وأخرجت سيرين المخطوطة من غلافها البلاستيكي السميك، وأفردت اللفافة برفق وعناية، وما إن استقرت اللفافة علىٰ سطح الطاولة بكامل مساحتها، كاد أن يُغمىٰ ثلاثتهم من الفرحة ومن هول الصدمة أيضًا، فكان أول ما غشىٰ عيونهم نقشتان دقيقتان واضحتان، لا عوار فيهما ولا شائبة، أولهما لسوارٍ ذهبي برأس ثعبان من الياقوت الأحمر، كالتي يتسور بها رسغ سيرين، وثانيهما عينان زرقاوان، كاللذان لمحهما سعيد لمحةً خاطفة صبيحة يوم أقلته سيرين بسيارتها من الميدان القريب من منزله!

صاحت سارة:

- أمي، ها هو ذا.

التفت الجميع بوجوههم حيث أشارت سارة بيدها إلىٰ بوابة جانبية للقصر عن شمال الشرفة التي يقفون فيها وجل تركيزهم علىٰ البوابة الرئيسة حيث كان من المفترض أن يدخل منها بعربته الحربية، ولكن لشدة الزحام الكثيف المتواجد أمام البوابة خشىٰ مربتاح أن يتجاوز الرعاع البوابة، ويحدث ما لا تحمد عقباه، فتفاعل معهم بحميمية، ثم انسل خفية من بينهم تاركًا لهم قواد أفرع جيشه يحتفلون معهم، وتسلل بمفرده قاصدًا البوابة الجانبية.

هرولت الفراشات الثلاث مغادرات الشرفة حيث تقف أمهن ورفاقها وعدون في سعادة صوب مربتاح، احتضنته سارة بحب وقبلت جبينه قبلة امتنان وفخر، ثم انحنىٰ ليقبل أوسطن علىٰ وجنتيها، وأخيرًا حمل أصغرهن بساعده الأيسر، فتعلقت بعنقه تقبل خده الأيسر، ومضىٰ بهن عائدين إلىٰ القصر حيث كان الجميع في انتظاره في القاعة الكبيرة.

انحنىٰ مربتاح قليلًا متأسيًا بما يفعله كبير الكهنة منت عندما تستقبله الملكة سيرانة، مخالفًا للمرة الثانية القوانين الصارمة للمملكة والتي استنها مؤسسها تاران الأول وعاونه منت في تأسيسها واستنان قوانينها، ومن بينها سجود الجميع -عدا منت- في حضرة الملك بما فيهم قواد الجيش، ولكن مربتاح ابن الإله سيت! هكذا قالت النبوءة، أفلا يحق له أن يستثني نفسه من السجود لملك أو لملكة!

لحظة أن اعتدل منتصبًا في زهو وفخر أشارت له سيرانة أن يتقدم صوبها متجاوزًا الأذرع القليلة التي تفصل بين كرسي عرشها حيث تجلس في وقار وشموخ ومكانه حيث يقف، فتقدم بخطىٰ منتظمة

وعيناه سهمان مصوبان إلىٰ أعماق حدقتيها العسليتين، وتوقف علىٰ بعد ياردتين منها، فقالت بنبرة أمٍ حانية:

- اصعد السلمتين يا مربتاح وادن مني، فمثلك يحق له ذلك، وهذا فخرٌ أمنحه لك يا قائد جيشي، وتشريفٌ لا ينبغي لأحدٍ من بعدك، اقترب.. اقترب أيها القائد العظيم.

دنا مربتاح حتىٰ بات قاب قوسين أو أدنىٰ، شعر بأنفاسها العطرة كرياحِ تعصف بكيانه، فترنح مخمورًا من عبق زفيرها حين احتضنت رأسه بكفيها، وقبلته بحنانٍ في جبينه المتصفد عرقا، وسط صيحات استحسان من الحضور

- ما أسعدك اليوم يا مربتاح!

قالها منت وابتسامة عريضة تشكل تقاطيع وجهه المستدير

- ما أسعدنا بك يا مربتاح.

قالتها سارة مبتهجة فبدت كزهرة جوري متفتحة تستقبل الشمس بتلاتها.

بينما همهمت مي رت بصوتٍ خفيض

- يريد أكثر يا مولاتي.. يريد أكثر؛ فهذا الرجل يعشقك، يريدك كلك، روحك، جسدك، أعطه يا مولاتي ولن يلومك أحد، أعطه وأنعمي به، لا تكوني بخيلة عليه يا مولاتي ولا علىٰ جسدك المتعطش له، أعطه وخذي منه، لا تكابري.. لا تكابري، ولا يجرمنك شنآن قومٍ أن تعدلي.



هكذا همهمت مي رت محدثة نفسها، ولا لوم عليها فلم تكن تعلم حتىٰ اللحظة بخبر النبوءة وبنودها الستة!

لحظات صمت ووجوم مضت علىٰ ثلاثتهم كأنها دهر طويل، أو ليلٌ لا نجوم فيه أو قمر.. سعيد جاحظةٌ عيناه تروح وتجيء بين السوار المنقوش علىٰ الرقاقة الجلدية والسوار الذي يلتمع حول معصمها، تتخبطه الأسئلة كالذي يتخبطه الشيطان من المس، أو كفيضانٍ كاسحٍ يعصف بعقله عصفا، ممتقعًا لون بشرته كمومياءٍ فرعونية مقيدةً إلىٰ مقعدٍ جلدي حديث، وسيد يجتر مشاهد تدافعت من كهوف ذاكرته مذ لحظة أن اقترح عليها التجول في خان الخليلي، أما سيرين كان وقع المفاجأة عليها صادمًا، وتداعت الأسئلة عليها تداعي الأكلة الجوعىٰ علىٰ أناء لحم، تتخاطفها تخاطف النسور لصيدٍ ضعيف لا حول له ولا قوة، لم أنا؟ ولماذا أنا؟ وكيف يحدث؟ ولم يحدث؟ من أنا؟ من هي؟ أأنا هي أم هي أنا؟

إلا أنّ المترجم بادر نابشًا قبر صمتهم

- هذه لغةٌ أجهلها رغم تشابهها في بعض كلمات المخطوطة مع اللغة الهيروغليفية!

عاجله سيد آمرًا في لهفة:

- حسنًا، جد لنا أي كلمات يمكنك قراءتها.. أي كلمات.

أمعن المترجم النظر في اللفافة المسطحة أمامه علىٰ الطاولة الزجاجية، وسيرين وسعيد اضطلعا بمهمة الضغط برفقٍ علىٰ أطرافها الأربعة بغية

تثبيتها، بينما سيد تناول قلمه الأسود تأهبًا لتدوين كل حرفٍ يجود المترجم بإملائه علىٰ آذانهم الشرهة.

- هذه الكلمة تتماهي مع شبيهتها في الهيروغلفية..

بادرته سيرين وكانت أسبقهم لسؤاله

- إذًا قل لنا ما معناها في اللغة الفرعونية؟

- تعني.. تعني سوار يا سيدتي.

صمت مرة أخرىٰ وعاد يتفحص اللفافة بعيني صقر يبحث عن فريسة يقتنصها بمخالبه.

- وهذه.. هذه أيضًا لها نظيرها.

وكان لسعيد السبق هذه المرة إذ سأله

- وماذا تعني إذًا؟

أجابه المترجم بنبرةٍ شابها التردد:

- أزرق يا سيدي.. أو ربما زرقاء، أو تعني سماء صافية.

دوّن سيد بقلمه الأسود الثلاث كلمات متجاورات في سطرٍ واحد

- أعتقد أنّ هذه مخطوطة كاهن، فتنسيقها أقرب ما يكون إلىٰ رسائل الكهنة، وأبعد ما تكون عما ألفته من رسائل ملكية، ولكنها كُتبت في عجالة أيضًا.

- وما قرينتك التي دعتك إلىٰ هكذا اعتقاد؟

- أولًا، رسائل الملوك أدق تنسيقًا وأوضح حروفًا، وتُقسمُ إلىٰ فقرات منفصلة، وتمهر في نهايتها بختم الملك أو الملكة، كما

يُذكر اسم كاتبها علىٰ هامش الطرف السفلي الأيمن منفردا، أما رسائل الكهنة فغالبًا ما تكون فقراتها متصلة لا يفصل بينها فراغات، تمامًا كما ترون في هذه المخطوطة، ويكتبها الكاهن بريشته، حيث لا كتبة رسائل تحت يده كما تحت يد الملك، وكما أخبرتكم آنفًا أنها كتبت في عجالة لأن الكاهن لم يمهرها باسمه ولا بختم المعبد.

- حسنًا يا عزيزي، ألا توجد كلمات أخرىٰ متشابهة مع الهيروغليفية؟

- توجد يا سيدي.. توجد.

أمسك عن الكلام وعاد بعينيه يتفحص الأحرف بدقة، ثم أشار بأصبعه إلىٰ ثلاث كلمات متفرقة دون أن يلمس الرقاقة الجلدية

- هذه.. وهذه، وتلك.

سألوه في نفسٍ واحد دون اتفاق مسبق:

- ماذا عن معانيهم؟

- الكلمة والتي كما تلاحظون قريبٌ موضعها من موضع كلمة سوار، هذه الكلمة تعني سحر، أو مسحور، أو طلسم، أما الثانية والتي تقع أسفل منها بسطرين تقريبا، فهي لا معنىٰ أعرفه لها، وغالب ظني أنها اسم علم

- أخبرنا به إذا.

- مربتاح يا سيدي، هكذا أقرأها مر بت اح، وكما قلت لكم لا معنىٰ لها في الهيروغلفية ما لم تكن اسم علم

تبادل ثلاثتهم النظرات في صمت، بينما عينا المترجم لا تبارحان اللفافة، وفجأة تهللت أسارير وجهه وصاح فرحًا

- وهذه كلمة رابعة أظن أنني أفهم معناها، وأشار بأصبعه إليها
- قله إذًا.
- بعث أو قيامة، شيءٌ ما قريبٌ من هذا أو ذاك المعنىٰ.

سارع سيد بتدوينها، وشفتاه تسأل المترجم

- يتبقىٰ لنا الكلمة الثالثة من الكلمات الثلاث
- نعم نعم يا سيدي، تلك التي في السطر قبل الأخير، إنها أيضًا اسم علم.
- وما هو؟
- سي را نا، اسم مكون من ثلاث مقاطع صوتية هكذا هو مكتوب.. سي.. را.. نا.

كادت سيرين أن تقع مغشيًا عليها، إلا أنها تغلبت بصعوبة علىٰ بوادر الغيبوبة التي داهمتها، إذ توجهت بعينيها إلىٰ حدقتي سعيد تستنجد بما فيها من طاقةٍ كامنة تدركها، وتخصها هي دون غيرها من نساء الأرض، وما إن تعلقت بهما كطوقي نجاةٍ لها، تساءلت متحيرة "كيف لعينين باردتين كعيني أفعىٰ أن تمداني بكل ما فيه بعثي وإذكاء نار شبقي، فارتجف من نشوةٍ مرتعشة كما ترتعش الآن كل خليةٍ في جسدي، كيف.. كيف"

- شكرًا أستاذ محسن، يمكنك الانصراف الآن.



انصرف محسن، وخلّفهم ورائه وقد تحلقت الرؤوس متجاورةً يحاولون ربط تلك الكلمات المتفرقة في سلسلةٍ واحدة متصلة ذات معنىٰ.

٧

توالىٰ توافد الراقصات والعازفات ينشدن أهازيج فرح، وحاملات الأقداح يحملن أقداحهن وقواريرهن الزجاجية، متجولاتٍ في خطىٰ راقصة بين مجالس الحضور، يصببن النبيذ الأحمر ويناولنه لمن أشار بأصبعه طالبا، أو يملأن كؤوسًا فارغة متناثرة علىٰ أسطح الموائد الرخامية، وسيرانة مستلقيةً علىٰ شقها الأيسر، عكس ما اعتادت آنفا، عيناه تتراوح بين اهتزازات أردافٍ لراقصات، وزاويةٍ قصية حيث جلس منت ومربتاح يتهامسان، لا تسمع شيئًا من حديثهما ولكن عيناه تقرأ تعبيرات ملامح وجهيهما، راصدةً كل خلجة من خلجات وجه مربتاح، وكل حركة من حركات جسده، وعن يمينها تقف مي رت ترصد ردات فعلٍ تتناوب مضاربها في تقاطيع وجه مولاتها ونظرات عينيها، والفراشات الثلاث يفترشن وسادةٌ عريضة تتسع لأردافهن مجتمعات، يتابعن بشغف تماوج أجساد الراقصات وتناغمها مع الإيقاع الموسيقي المنبعث من الآلات الوترية

- هنيئًا لنا نصرك المؤزر يا بني.
- أشكرك أيها الكاهن العظيم، فكل الفضل يرجع إليك أولا.

- لا فضل لي يا مربتاح، إنها النبوءة يا ولدي، وما أنا إلا وسيط أوكل لي الإله سيت مهمة إبلاغها لمولاي تاران الثاني، ومن بعده إلىٰ مولاتي سيرانة.

- أما وقد ذكرت النبوءة يا أبتاه، فقد أخبرتني مولاتي أنّ بها بندًا لم تطلعني عليه حين أطلعتني علىٰ بنودها آنفا

- بلىٰ يا مربتاح.

- وهي أيضًا لم تش به إلي، وقد أمرتني بسؤالك عنه، فهلا أطلعتني عليه الآن.

- حسنًا يا مربتاح سأطلعك عليه الآن، بناءً علىٰ أمر ملكتي، وما عليّ إذ أمرت مولاتي إلا السمع والطاعة، رغم أنّ الوقت غير مناسب الآن، ولكن لا حيلة لي أمام أمر مولاتي وإصرارك الشديد علىٰ إخبارك به

- لم الوقت غير مناسبٌ الآن للإفصاح عن معلومة قديمة؟ تعرفها أنت، وتعرفها مولاتي، وأنا.. أنا صاحب النبوءة والمعني ببنودها كافة وتكتمانها عني؟!

- حتىٰ لا أفسد عليك وعلينا فرحتنا يا ولدي.

- شغفي بمعرفته يفوق ما عداه يا كبير كهنة المعبد

- حسنًا يا مربتاح..

صمت قليلًا طالع خلال صمته عيني مربتاح العسليتين بعينين متفحصتين نافذتين، وأردف:

- أعلم يا ولدي علم اليقين أنك عاشقٌ لسيرانة.. سيرانة الأنثىٰ، ولا يشوب عشقك لها شهوة ملكٍ، ولا فتنة مال، وسيرانة تعلم ذلك أيضًا، فالنبوءة أنبأتنا بعشقك لها قبل أن نعرفك أو حتىٰ تلمحك أعيننا، وكذلك ولهك وشغفك بها وشبقك الطافح كبركانٍ تتفجر حممه خلال نظراتك إليها، فهي أنثىٰ خبيرة ذكية، لم يكن عشقك لها ليخفىٰ عليها حتىٰ ولو لم تكن هناك نبوءة، ولكنه عشقٌ مستحيل يا ولدي.

تقلصت ملامح وجه مربتاح وكادت أن تتلاشىٰ في مستنقع امتقاعٍ آسن.

- مستحيل؟ لم يا أبتاه.. لم؟

- هكذا قالت النبوءة يا ولدي.

صاح مربتاح غاضبًا وانتصب واقفًا يرتجف

- تبًا لتلك النبوءة، وسحقًا لسيت، كيف يفعل هذا بي وأنا ابنه الوحي، كيف.. كيف؟

احتضن منت يد مربتاح واحتواه بكفه الضخم، وجذبه بحنو أب وعطف صديق ليجلس، فجلس..

- لا تتسرع يا ولدي في الإساءة لإلهك وأبيك، فهو يعلم أنّ معشوقتك سيرانة قد وهبت حياتها وجسدها طوعًا وحبًا وعشقًا يشبه عشقك لمولاها ومولاي تاران الثاني، فهو لم يكن بالنسبة لها ملكٌ أو زوج أو أبٌ لبناتها فقط، بل كان حياتها.. كل حياتها.

قاطعه مربتاح في حدة ظاهرة

- وتاران مات.. مات يا أبي!

- موته يا ولدي لم يغير شيئًا في عشقها له، بل ازداد توهجًا وتأججت نار شوقها للحاق به إلىٰ حيث ذهب، ولكن الإله سيت أنصفك لأنك ابنه، ولأنك عاشقٌ تشبهه في عشقه

- كيف أنصفني وقد حرمني منها يا أبتاه.. كيف كيف؟

أنا لا أصدقك أنّ أبًا يفعل تلك الفعلة الشنيعة بولده!

- لا تكن عجولًا يا ولدي ومجحفًا في أحكامك، فالغضب يعمي البصيرة، فدع عنك غضبك هنيهة وانصت لي.

صمت منت برهة ثم واصل حديثه

- إنّ أباك يا ولدي أدخرها لك تنعم بها وتنعم بك، تنهل من حدائقها وترويها بمهجة روحك وماء جسدك، زمن آخر تكون لك وتكون لها، زمنٌ ليس فيه تاران...

أمسك عن الكلام ونهض كلاهما فزعين، إذ ندت صرخة مزقت أغشية آذانهما

- أمي.. أمي.

اندفعا مهرولين صوب الملكة الغائبة عن الوعي، وبناتها يصرخن باكين حولها، ومي رت ترتعد فرائصها وهي تحاول إفاقتها، بينما اختفت الراقصات والعازفات وحاملات الأقداح في طرفة عين.

أوسد مربتاح رأسها علىٰ فخذيه العاريتين، والدموع تنهمر سيولًا من عينيه وتغرق وجهها الملائكي المتوسد فخذه، بينما ركع منت بجوار

جسدها يتلو صلواته وجسده يرتجف، هنيهة وانفرج جفناها في تثاقل، وتعلقت نظرتها بما يعلوها من سقف، وانفرجت شفتاها تهمهم محدثةً شخصًا ما تراه ولا يرونه.

- انتظريني يا سيرين، ها أنا قادمةٌ إليك.. قادمةٌ إليك، آن أوان مغادرتي وسفري من عالمي إلىٰ عالمك، ها أنا قادمة.

علىٰ الجانب الآخر من الزمن، إذ اضمحلت الفوارق الزمنية وتلاشت، فصار اليوم هو اليوم والساعة هي الساعة واللحظة نفس اللحظة، بعفوية وبدون وعيٍ منها لامست أنامل يد سيرين السوار المنقوش بدقة فوق ألياف الرقاقة الجلدية، وإذ بها ترتجف، ويترعد جسدها كأنما أصابته صاعقة، فتهوىٰ إلىٰ الأرض مغشيًّا عليها، وسعيد لنحافته رغم أنه الأكبر سنًا يسبقها هاويًا إلىٰ أرضية الغرفة، لتسقط رأسها فوق فخذيه، بينما يرتطم جسدها بالأرض، ووقف سيد برهةً غارقًا في ذهوله، وقد تجمدت أوصاله كافة عاجزًا عن استيعاب ما تفاجأ به سقوط تلاه سقوط في زمنٍ لا يتجاوز ثانيتين زمنيتين، ثم ما لبث أن نحّا ذهوله جانبًا، وقعىٰ جالسًا علىٰ ركبتيه، يحاول مساعدة سعيد في إفاقتها، وإذ بهاتفٍ يهاتفه أن اقبض بقوة علىٰ السوار الذهبي ذي الرأس الأحمر الذي يتسور رسغها الأيمن، راعه سخونته الشديدة إلا أنه تغاضىٰ عن إيذائها لراحة كفه وأحكم قبضته بقوة علىٰ السوار.. فتحت سيرين عينيها بصعوبة شديدة، ونظرتها معلقةٌ بسقف الغرفة، ثم انفرجت شفتاها تهذي

- تعالي.. تعالي يا سيرانة أنا في انتظارك، تعالي.. تعالي.

بينما تبادل سعيد وسيد النظرات مذهولين مما يحدث لسيرين، ومما يحدث حولهما من ضجيج، وأصوات لا يتبينون ماهيتها ولا مصدرها، وأطياف أشباحٍ تدور فوق رأسيهما مباشرة، ثم ترتفع كسحابات دخان تلامس السقف، ثم تعاود الهبوط نحو رأسيهما، وهزيم ريحٍ يضرب بقوة زجاج النافذة الزجاجية والباب الزجاجي الفاصل بين الغرفة وشرفتها فيحطمهما وتتناثر شظايا الزجاج، ثم تعود لسيرتها الأولىٰ.

- أين أنا؟ ما الذي حدث؟ أرجوكما أخبراني.

بنبرة صوتٍ مجهد يتصعد من قاع بئرٍ عميق، نبست بها شفاهها، وهي تعتدل جالسةً علىٰ ردفيها وعيناها تترنح بين هذا السعيد وذاك السيد ذاهلةً مما تراه في عيونهما من أنهار رعب تتدفق بلا توقف، وفيضان قلق يفيض فيغرقها!

٨

وهذا يومٌ آخر نكصت فيه عقارب الزمن عاكسةً دورانها الطبيعي، مصطحبةً معها ذات اليوم بشخوصه وأحداثه، فهنا شعبٌ ينتحب، إذ تبدلت الأفراح إلىٰ مآتم، والزغاريد إلىٰ صراخ، وسيرانة جسدٌ مسجىٰ علىٰ فراشها، وفراشاتها الثلاث يتناوبن احتضانه منتحبات بين فينةٍ وأخرىٰ، بينما مربتاح يجلس القرفصاء في زاوية الغرفة، واضعًا رأسه بين كفيه، والدموع متحجرات في مقلتيه غير مصدقٍ أنّ رحيل معشوقته بات واقعًا عليه أن يتعامل معه، ومي رت غارقةٌ في بحر

ذهولها وقد تجمدت حواسها تمامًا، فبدت لناظرٍ ما، لا ترىٰ لا تسمع ولا تتكلم.
كان منت أكثرهم تماسكًا وهدوءًا، وسؤالٌ يلح عليه
"أما وقد رحلت سيرانة فماذا بعد رحيلها"
كان أخوف ما يخاف منه انهيار المملكة، فهي جزءٌ منه وهو جزءٌ منها، شارك بجهده وعافيته ودمه وذهنه في تأسيسها مساعدًا ل "تاران الأول" وإذ بها -في لحظة- يتهددها خطر التلاشي والاندثار، الملكة ماتت وبناتها لا زلن صغارًا غير مؤهلين لقيادة أمة، ولا ولد لها ولا قريب مقرب يمكن الوثوق به والتحكم فيه، أمر الجميع بالتكتم علىٰ وفاتها مؤقتًا إلىٰ أن يهتدي لمخرجٍ من مأزقٍ فاجأهم به الإله سيت، أو هكذا يعتقدون، إلا الخبر قد ذاع وانتشر انتشار النار في الهشيم، وشعب المملكة خرج إلىٰ الطرقات عن بكرة أبيه بين باكٍ ومنتحب، وما هي إلا أيامٌ معدودةٌ ويشق الخبر طريقه شمالًا حيث يتربص الفراعنة بهم، وجنوبًا حيث يلملم السدرانيين بقاياهم من الشتات، ويعدون العدة للانتقام، ويا له من انتقامٍ منتظر، هم إذًا بين فكي رحىٰ، جيش قوي منظم وحثالة من اللصوص قاطعي الطرق.
أمر منت مي رت بإخراج الجميع من الغرفة عدا مربتاح، ليساعده في تأدية الطقوس الجنائزية، فانصاعت وغادرت الغرفة وبنات سيرانة الثلاثة وأغلقت الباب.
- تماسك الآن يا مربتاح ولتبك وتنتحب كما شاء لك بعد أن ننهي المهمة التي ألقاها سيت علىٰ عاتقي وعاتقك.

نهض مربتاح علىٰ قدمين مخدرتين لا تكادان تحملانه، ومضىٰ بخطىٰ ثقيلة وبطيئة إلىٰ حيث ينتصب منت بجوار جسد سيرانة المستسلم لسكونٍ مطبق بعد نشاط.

أمره منت أن ينزع السوار الذهبي من ذراعها، وإن كان خلعه مستحيلًا فليقطع يدها بمديته، ومربتاح ينفذ ما يتلقاه من أوامر في صمت ودون أدنىٰ تفكير، كأنه ليس بشرًا وإنما تمثالٌ تحصّل من البشر علىٰ ملكة المشي والإنصات والانصياع، قطع يدها اليمنىٰ بمديته دون أن يطرف له جفن، ونزع السوار ومد يده الدامية به إلىٰ منت، الذي بادره بأمرٍ ثانٍ

- لا، هذا السوار يخصك يا بني، فهو أيقونة النبوءة وبه ومنه أسرارها وقوة تأثيرها، ضعه بدمه تحت إبطك الأيسر واضمم عليه ذراعك حتىٰ تشعر بلسعة نار، ثم كرر ذلك مع ذراعك الأيمن.

فعل مربتاح ما أشار عليه منت بفعله، بينما كان منت منشغلًا بالبحث عن شيءٍ ما داخل صندوق الطقوس الصغير، وما لبث أن تهلل وجهه، وأخرج يده من الصندوق تحوي في راحتها قطعتي زجاج زرقاوين، حجمها يماثل حجم حدقة العين، ومربتاح يقف كآلة تنتظر الضغط علىٰ زر تشغليها، والسوار عالقًا بأصابع يده المتشنجة كأن لا حياة فيها.

- تعال إلىٰ هنا يا بني.



وأشار له أن يقف خلف رأس سيرانة، فمضىٰ ووقف حيث أشار له منت

- الآن ضع السوار بإحكام بين شفتي مولاتك.

فوضعه دون تردد، ثم ناوله منت قطعتي الزجاج، ثم انحنىٰ بجسده الضخم وفتح جفني عين سيرانة اليمنىٰ عنوةً، ثم أشار بعينه لمربتاح أن يضع إحدىٰ القطعتين، ففعل ثم كررا نفس الأمر في عينها اليسرىٰ، ثم بدأ كبير الكهنة منت في تلاوة تراتيله الجنائزية لبضع دقائق، وما إن انتهىٰ من طقوسه، بادر لتنظيف المكان بدقة ثم أحكم الغطاء ساترًا جسد سيرانة عدا وجهها، ونزع السوار من فمها وأمر مربتاح أن يخفيه ويحتفظ به، ومن ثم استدعىٰ مي رت والبنات الثلاثة لإلقاء النظرة الأخيرة، قبل أن ينقلوا الجثة تحت جنح الظلام ليدفنوها في مقبرة سرية خلف الجبل الشرقي.

منذ دقائق قليلة غادرت الشمس سماء القاهرة، فحث الليل خطاه علىٰ المضي قدمًا، ليملأ فراغًا تركته وراءها، وأضواء المصابيح الكهربائية أحالت ظلمة الغرفة إلىٰ نهارٍ بلا شعاع شمس أو ضوء قمر، وثلاثتهم وقد تجاوزوا محنة الأمس ظاهريًا، بينما داخل كلٍ منهم تدور ساقية الأسئلة تشتهي ماءً فلا تعب إلا هواء وتطرح هواءً، فسيرين لا تدري ما أصابها اللهم إلا غيبوبةً داهمتها في لحظة، وانقشع غبارها في لحظة، أما ما بين اللحظتين فعالمٌ آخر، لم تكن في وعيها لتدركه، ولكن سيد أدركه ووعاه بعد أن استدعىٰ ما سبق واختزنه في ذاكرته ورتبه، أوله هاتفٌ ناداه وأمره فلبىٰ دون وعي منه ولا إدراك، وثانيهما هاتفٌ أمره

فانصـاع طائعًـا مسـيّرًا بـلا إرادة فتطـأ قـدماه بوابـة محـل الانتيكـات، وثالثهما شيءٌ ما يستلب منه حركـة يـده ونظـرة عينيـه ويـدفعهما دفعًـا لالتقاط السوار الثعباني ذي الرأس الحمراء من موضعه داخـل العلبـة، ورابعهما ما يراه بأم عينيه ولا تخطئه عين راصد من فيض شبق يتـدفق من عينيها، وإلىٰ من؟! رجلٍ كهل لا يراها ولا يشعر بها! والأغرب من ذلك تدخله هو شخصيًا للتقريب بينها وبين عجوزٍ لا يطفئ شهوة ولا يروي عطش، وخامسهم.. تلك النقوش علىٰ الرقاقة الجلدية، السـوار الذهبي والعيون الزرقاء، وآخرهم ما حدث وهذت به سيرين البارحة، ستة بنود تراصت وصنعت فسيفساء بازلتية صلدة تغطيها أتربةٌ سوداء، فليعمل جاهدًا علىٰ إزالة أتربتها وفك طلسمها الأكثر وضـوحًا، تلـك الوشيجة المبهمة بين سيرين ٢٠٢١، وسيرانة ٣٥٠٠ قبل الميلاد!

أما سعيد فلا يزال يتخبط تائهًا في ظلماتٍ ثلاث يبحث عـن وميض ضوء، فظلمته الأولـىٰ تجلـت عتمتهـا أثنـاء أمسـية ثقافيـة، حين التقـىٰ سيرين لأول مرة، وإذ ذاكرته ترده إلىٰ غيمة سواد تشي بلقاءٍ قديم بينها وبينـه بـلا تـأريخ لأيـن ومتـىٰ، وظلمتـه الثانيـة حين لمـح زرقـةً تطـيح للحظـة بلـون حـدقتيها العسـلي الفـاتح ثـم تختفـي، لتظهـر العينـين الزرقاوين ذاتهما نقشًا في مخطوطة موغلةٍ في القدم، أما ظلمته الأخيـرة فدهشـته واسـتغرابه بـل واسـتنكاره مـن حمـم رغبـة تنـدفع مـن بركـان عينيهـا لا هـدف لهـا هـو، وهـو الرجـل العجـوز الـذي لا ناقـة لـه ولا جمل!

بادر سعيد فجأةً يهتك ستائر الصمت

- ألا تـرون علاقـة مـا بـين السـوار المنقـوش، وسـوار الأسـتاذة سيرين؟

أجابه سيد ممتعضًا وساخرا:

- وهل هـذا سؤال يـا سـعيد؟! طبعًـا كلنـا نـرىٰ العلاقـة واضـحةً وضوح الشمس.

- لا.. لا، أقصـد أنّ علينـا أن نركـز جهودنـا ونحفـز أدمغتنـا لاكتشاف ماهية العلاقة الخفية بين سيرين وسيرانة، خاصـةً بعـد ما هذت به الأستاذة وسمعناه بوضوح.

امتقع وجه سيرين وارتعشت يداها

- أأنا هذيت وذكرت في هذياني اسم سيرانة؟

- أهدئي يا ابنتي أهدئي، حدث ذلك فعلًا وأخفيناه عنك البارحة مخافة أن تتدهور حالتك النفسية، والآن زلـة لسـان مـن الأسـتاذ وشت بما حاولنا طمسه.

قاطعه سعيد بجدية وبنبرة حادة:

- لم تكن زلة لسان يا سيد، أنا قلتها عامدًا متعمـدا، فـنحن فريـق عمل الصراحة والمكاشفة لبنة نجاحـه في مسعاه، ولا يليـق بـي ولا بك أن نغافل ثالثتنا.

تأفف سيد وأشاح بوجهه إلىٰ الجهـة الأخـرىٰ، بينمـا تمالكـت سـيرين رباطة جأشها وقالت في هدوء

- الأستاذ سعيد معه كل الحق فيما قاله يا أستاذ سيد، والآن فليخبرني أحدكما ما هذيت به البارحة حتىٰ أكون علىٰ بينة، فطريقنا واحد ولا لأحد منا خيار النكوص.

أخبرها سعيد بكل حرفٍ هذت به بعد أن لمست بأناملها نقش السوار. ثم بادرهما بسؤالٍ آخر:

- مهنتي السابقة في هيئة الآثار أكسبتني خبرة جيدة عن تصرفات الملوك والملكات والكهنة، وفي هذه المخطوطة أمرٌ غريب لم نعهده في أي وثيقةٍ لكاهن عثرنا عليها من قبل.

- تريد يا أستاذي أن تؤكد لنا ما قاله المترجم عن عدم وجود توقيع باسم الكاهن، أهذا ما تريد قوله؟

- تمام، ما الذي يدفع كاهن لعدم إمهار وثيقته؟ هذا هو السؤال الذي لو توصلنا لإجابة له سيوفر علينا نصف الطريق.

- كنت مرتبكًا بسبب انتحار مربتاح، فكتبتها علىٰ عجل.

صمتٌ ووجوم أحالا لون بشرتيهما لاصفرارٍ باهت، وعيونٌ جحظت في محاجرها تتطلع إليه في ذهول، وقد أرعبها تحول لون حدقتيه من البني الداكن إلىٰ الأزرق، تبث من بؤبؤيها نظرةً زجاجية، وصوتً اقتحم آذانهما فجأة مرددًا صداه كالصاعد من قاع بئرٍ جاف

صُعق سيد عندما رأىٰ امتقاع بشرتهما، إذ بديا ليه كموتىٰ يتنفسون

- ما بكما؟!

أجابته سيرين متسائلة في لهفة:

- أمات مربتاح يا منت؟ هل حقًا انتحر مربتاح لأجل أن يلحق بي كما قالت النبوءة؟

- بلىٰ يا مولاتي انتحر لأجلك بعد رحيلك بساعات، وها أنا لحقت بكما لأكون شاهدًا علىٰ عرسكما

التفت صوب سعيد المرتعدة فرائصه مما يراه من عيون زرقاء، ومما يسمعه من حديثٍ أصابه بخرس..

- ولكن من هذا العجوز يا مولاتي؟! وأين.. أين مربتاح؟

ضحكت سيرين وهي تشير إلىٰ سعيد بطول ذراعها

- هو مربتاح يا كبير كهنتي.. هو مربتاح ألا ترىٰ عينيه؟

اقترب منه قليلا ونظر في عينيه الزرقاوين فكست ملامحه دهشة

- إنّ هذا لشيء عجيب، أنت محقة يا مولاتي ولكنه ليس أربعينيًا كما قالت النبوءة.

سكت لبرهة ودعك جبينه المتعرق ضاغطًا علىٰ عظم جمجمته بأنامله الغليظة

- يبدو لي أنّه قد حدث خطأٌ ما .

أغمض عينيه بقوة معتصرًا حاجبيه الكثيفين بأطراف أصابعه

- وجدته يا مولاتي، النبوءة صحيحة وأنا من أخطأ.. أنا من أخطأ.

- كيف يا منت؟

- لقاؤنا في هذا العصر ما هو إلا لقاءٌ تمهيدي، أما عرسكما ففي زمنٍ لم يأتِ بعد.

حاول سعيد النهوض لكن قلبه كان يفي بنبضاته الأخيرة، اللاتي لم تسعفه وتمنحه ما يكفي من الوقت والقدرة، فسقط لافظًا أنفاسه الأخيرة، بينما عيناه تعود تدريجيًا من اللون الأزرق إلىٰ لونهما الطبيعي.

في هدوء قاتل وبرودٍ عجيب، التقطت سيرين هاتفها واتصلت:

- أستاذ شفيق.. للأسف الشديد أحد زميليّ وافته المنية.

في زمن ما..

كان نحيبها صامتًا وهي تجر خطواتها في ظلمة ليل كئيب وحيدة، توقفت بجانب لافتة غريبة الشكل، مضيئة باللون الأحمر، كتب عليها، الذئاب لرسم الوشوم. تدفق غضبها منه، في عروقها، مسحت دموعها، دفعت مقبض الباب الحديدي، وهي تقول في نفسها:

فليذهب هو وحبيبته الجديدة إلىٰ الجحيم.

المكان مزدحم ومليء بذوي الأوشام، أغرقت الموسيقىٰ الصاخبة قلبها الحزين بالحنق، نظرت حولها بصعوبة، دخان السجائر وقلق الأصوات المتشابكة جعل الأثير ضبابيًا.

اخترقت حشود الغرباء المحدقين فيها بأقراطهم وحليهم وهيئاتهم الملتوية وروائحهم الثقيلة، وجدت نفسها أمام باب أحمر مشقوق بخفة ينساب منه ضوء شاحب خافت، استرقت النظر، وجدته يرتدي بنطالا جلديا وقميصا أسود، دفعت الباب بأناملها المرتجفة، نظر إليها

بعينيه الزرقاوتين الكحيلتين وهو يمسد لحيته العشوائية الداكنة، وقال بصوت واضح النبرات:

- ما رأيك بوشم يا...

-سالي.. اسمي سالي.

بينما كان ينحت علىٰ ساعدها صورة ثعبان.

نظر إليها بحنوٍ قائلًا ونبرة صوته العميقة تداعب ذاكرتها المشوشة.

- هل التقينا من قبل يا سالي؟

.... بداية النهاية ....